سلسلة ثقافية شهرية
تصدر عن دار المعارف
[٦٩٨]

رئيس التحرير

رجب البنا

نائب رئيس التحرير
حمدى عباس

مدير التحرير
كريمة متولى

مدير فنى
شريفة أبوسيف

تصميم الغلاف
الفنان : شريف رضا

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج . م . ع .
هاتف: ٥٧٧٧٠٧٧ – فاكس: ٥٧٤٤٩٩٩ – E-mail: maaref@idsc.net.eg

دكتور أنور عبد الملك

الطريق إلى مصر الجديدة

دار المعارف

إن الذين عنوا بانشاء هذه السلسلة ونشرها ، لم يفكروا الا فى شىء واحد ، هو نشر الثقافة من حيث هى ثقافة ، لا يريدون إلا أن يقرأ أبناء الشعوب العربية . وأن ينتفعوا ، وأن تدعوهم هذه القراءة الى الاستزادة من الثقافة ، والطموح إلى حياة عقلية أرقى وأخصب من الحياة العقلية التى نحياها .

طه حسين

دار المعارف بمصر

العدد الأول من سلسلة اقرأ الشهرية صدر عام ١٩٤٣

الإهـــــداء

رسالة إلى :

اللجنة الوطنية للعمال والطلبة (١٩٤٦)

الجبهة الوطنية المتحدة فى سبيل الاستقلال والديموقراطية والنهضة

مقدمة

يكثر استعمال كلمة « الجديد » فى مرحلة فيها شعب مصر يحث على ضرورة الإصلاح والتغيير، على تنوع وجهات النظر والمفاهيم، وكذا قدرة كل منها على إثراء الجديد المرتقب.

وقد رأينا أن نقدم ملفًا يجمع نخبة من إسهامات عدد من الرواد وما أقاموه من محطات على طريق مسيرة مصر الطويلة بدءًا من جيل رواد الثورة فى مطلع الأربعينات حتى اليوم. نخبة من الرواد، من ساحة واسعة رفعت ألوية التحرر والتقدم والتغيير والثورة والنهضة التى جمعت بين مختلف مدارس الفكر والعمل على أرض مصر، فى جبهة وطنية متحدة واسعة رحبة حول محور العروة الوثقى التى جمعت دومًا، ومازالت وستظل، شعب مصر وجيش الوطن.

مصر الجديدة، أملنا أجمعين يجب أن تصبح هدفًا للفكر والعمل المصرى دون كلل، مادام أن العمل - وحده - هو الذى يفتح طريق المستقبل.

وهذا الملف الشامل سبق نشره فى بعض الصحف والمجلات والمؤتمرات العلمية وفى أبحاث مختلفة.

التراكم الوطني

في الأربعينات والخمسينات، كان المدخل إلى المسألة المصرية: من أين نبدأ؟ »يتلوه محاولات للإجابة، تتنوع حسب المشارب والتوجهات، تشير أنه: « من هنا نبدأ ».

من أين نبدأ ؟، إذن، الحديث عن منهج مواجهة تشابك المشاكل، وتزايد حدّتها، وأثرها على الإرادة والروح المعنوية والأداء؟

تتعدّد الإجابات، لا بتعدّد القوى السياسية والمدارس الفكرية فحسب - وهو أمر طبيعي وضروري - وإنما - وهذا هو الجديد في رأينا في هذه المرحلة المضنية التي تجتازها مصر في مواجهة التحديات، ابتداءً من طروح أو أفكار أو نداءات أو محاولات تحليلية يجمع بينها قاسم مشترك ألا وهو: إنها تبدأ وكأنها من فراغ، وكأن لم يكن ما كان، وكأن الصفحة بيضاء. وفي كلمة، ينطلق المفكر أو الداعي أو من يتصدى للمسئولية إلى واحد « بجيل السيرة الذاتية » - في بلاد حضارتها سبعة آلاف عام.

اللحظة التاريخية

ومن هنا كان لزامًا علينا أن نسعى إلى الإسهام في توضيح المداخل النافعة لإدراك « مناهج الألباب المصرية » في مرحلة التحدّيات

العملاقة الآنيّة والمستقبليّة. ومن هنا، كان علينا أن نتساءل، بادئ ذى بدء: ما هى اللحظة التاريخية لطرح المسألة المصرية؟

الإجابة التقليدية على هذا التساؤل المنهجى البسيط الذى لا مفرّ منه تتّسم عادة بالإدراك التاريخى المسطّح: فنحن نعيش «فى القرن الواحد والعشرين»؛ فى «مطلع عصر ما بعد المجتمع الصناعى»، «مجتمع المعلوماتيّة»؛ فى عصر «نهاية التاريخ» أو «انحدار الغرب»؛ إلى غير ذلك من التوصيفات التى يمثّل كلّ منها ناحية من الصورة الإجمالية، ليس إلا.

وعندنا، على وجه التحديد، فإن اللحظة التاريخية التى يحياها العالم بشكل حاد وإيقاع تزداد سرعته على مرّ الأيام، إنما هى مرحلة الانتقال من مرحلة «تغيير العالم» إلى مرحلة «صياغة العالم الجديد». «تغيير العالم» أى نهاية النظام العالمى المتمركز حول الغرب وحده منذ ١٤٩٢ إلى ١٩٤٥، وعلامته المميّزة تحرر القارات الثلاث فى آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية بصور مختلفة ومتباينة إلى حدّ بعيد من الهيمنة الغربية ١٩٤٨ - ١٩٧٣؛ وكذا تصدّع نظام الهيمنة الغربية الثنائية من جراء الأزمة الجذرية التى أصابت الاتحاد السوفيتى. وكذا كتلة الاشتراكية الأوروبية فى ١٩٨٩ - ١٩٩١.

أما «صياغة العالم الجديد»، فإنها لا تحظى بنفس القدر من تلاقى التحليلات والآراء. فمن ناحية نرى المؤمنين «بالنظام العالمى

الجديد » حول مركزه الأمريكى الأحادى وسيادة قيم السوق التى تؤكد لدى هذا الفريق، أن التاريخ قد انتهى؛ وأنّ على من هو خارج الحلبة أن يلحق بها، أو يظلّ دخيلا، بل ومنفيًّا فى دياره.

هذا، بينما اتجهت قطاعات واسعة من الفكر والعمل إلى أن صياغة العالم الجديد تعنى فى الأساس انتقال « المبادرة التاريخية » من العالم الغربى حول مركزه الأطلسى إلى الشرق الحضارى حول آسيا الشرقية ومركزها الصين فى رباط عضوى مع اليابان وجنوب شرق آسيا وآسيا الوسطى وكذا قطاع هام من جنوب آسيا. ويتجه هذا الرأى إلى الابتعاد عن النظرة التبسيطية إلى التضادّ: ذلك أن صعود آسيا فى قلب الشرق لا يعنى انحطاط أو زوال الغرب بحال من الأحوال، وإنما إعادة صياغة نسبة فعاليّة كل قطاع من العالم، لا إلغاء دوره أو التنكر له. أى: المفهوم الجدلى التاريخى - الرافض تماما للموقف التسطيحى، الوضعى.

العالم إذن، العالم الواحد، عالمنا. وإن كنا نحيا هذا العالم فى دوائر مختلفة، متباينة، تزداد بينها الهوّة بشكل مخيف - وكأن « العالم الواحد » فرض نظرى لا يعكس انقسام العالم إلى دوائر مغلقة، تارة على الثراء والنموّ، وتارا على تزايد التخلف المجتمعى وتفاقم الأزمات.

إن كانت هذه هى اللحظة التاريخية التى نحياها، من حيث التوصيف العام، وإن كانت مصر وأمتنا العربية لا تزال فى القطاع

الذى يواجه تحديات النمو والتقدم - ومن حولها كمّاشات التهديد والمخاطر النوويّة - يكون من المتوقّع أن يكون جوّ الإجابات وردود الفعل والحلول المقترحة يتسم بطابع« الفعل » حتى تأتى مرحلة المبادرة وتبيّن كيفية الإسهام الإيجابى بالفكر والعمل.

وبينما نحن فى هذا المشوار - المسيرة، يتساءل العديد من المتشدّين إن كنّا فى مكانة تسمح لنا بالانتقال من « ردّ الفعل » إلى « الفعل ». بل ويضيف قطاع من غلاة المتشائمين إلى أن العالم الجديد سوف يفكّك أركان الدول والقوميّات والأمم - بينما نرى كبريات الصحف ومنابر الفكر، فى الغرب قبل الشرق، تحذّر من هذه الرؤيا السلبيّة العدميّة.

وعندنا أن الملاحظة الدقيقة والدراسة التحليلية المقارنة لأحوال الدنيا كما هى عليه، وكذا بوادر صياغة العالم الجديد، تشير إلى أن الزوابع والأزمات سوف تفكّك التجمعات السياسية - المجتمعية - المحدثة، بينما سوف تصمد الأمم العريقة حول الدولة الوطنية المستقلة إرادة، على رغم الحصار.

إن مقام مصر، فى قلب أمّتنا العربية، ومصيرها المرتقب هو: الاستمراريّة، الصمود، المواجهة، العطاء.

.ما العالم؟.

نعود بالذاكرة إلى كوكبة المفاهيم والشعارات التى نبعت من أرضنا المحروسة فى العصر الحديث لنتحسّس الطريق:

١ - مرحلة أولى - بين ١٧٩٨ و ١٨٨٢، بين الحملة الفرنسية والاحتلال العسكرى البريطانى - وهى مرحلة التفاعل مع قوى الهيمنة، مع أوروبا عصر الثورات والاستعمار، بعد عزل مصر أو محاصرتها وتهميشها نحو أربعة قرون.

كان جو التساؤل السياسى - المجتمعى - الفكرى العام لدولة محمد على وامتدادها على رغم التأزم حتى إسماعيل يتلخص فى سؤال: « ما العالم ؟ » أى: ما حقيقة، أو ما هو سرّ، أوروبا المتقدمة؟ وكذا وفى آن واحد: ما هى أسباب تخلّفنا؟ ومن ثمّ: ما هو السبيل إلى تخطّى التخلّف واللحاق بعجلة التاريخ - التاريخ الذى كان يمثله آنذاك الغرب المتمركز فى أوروبا؟

فى هذا الجو، وانطلاقا من هذه التساؤلات، ظهرت على التوالى الإجابات وكأنها حلول. **فأولاً** رأى اتجاه « التحديث » أو حسبما أصبح عليه فيما بعد « التحديث الليبرالى » أن مصر تخلّفت عن ركب الحضارة الحديثة لأنها لم تمسك بمفاتيح الثورات الثلاث: العلميّة والصناعيّة والسياسيّة؛ وبالتالى فإن عليها أن تمتصّ هذه التجارب بما يتفق مع شخصيتها الحضارية، وهو قدر واسع وثرى. كانت هذه رسالة رفاعة رافع الطهطاوى وإبراهيم باشا وعبد الله النديم وزملائهم ورواده. ثم، وبعد ١٨٤٠، وعلى رغم عودة الروح فى عصر إسماعيل،

ظهر الاتجاه الثانى وقد يَئِس من محاكاة أوروبا واتجه إلى الجذور. إلى «الأصولية الإسلامية» راجيا أن تكون معانيها التكوينية الكريمة دافعًا لتخطى التخلّف؛ وهو الدعوة التى اقترنت برسالة محمد عبده وجمال الدين الأفغانى ورشيد رضا ومصطفى عبد الرازق وغيرهم.

وإذا كان مفهوم النهضة هو الإطار العام لهذا التحرك الثنائى، فإن تدقيق النظر يرصد كوكبة المفاهيم المواكبة، وكلها تبرز معنى ونواحى «الوطن»، فى السلطة السياسية و لهندام المجتمعى والقيم وأساليب التعامل والتعليم والثقافة.. وهو الجوّ الذى أفضى، فى نهاية هذه الحقبة وبداية الانطلاقة، إلى تحرير مصر وتحقيق استقلالها وسيادتها إلى مفهوم «الوحدة الوطنية» التجميعى فى مطلع القرن العشرين.

.من نحن؟.

٢ - ثم جاءت مرحلة ثانية، بعد الاستقلال الصورى ودستور عام ١٩٢٣، بعد استقرار مسلّمات الاتجاهين التكوينين للفكر والعمل المصرى، إلى الإجابة عن سؤال يبدو وكأنه من البديهيات: «من نحن؟» ليس فقط ما هى مصر «أم الدنيا»؟، وإنما كيف تتحقق رؤية مصر فى عالم اندلعت فيه الصراعات بين الدول الكبرى بين ١٩١٤ و١٩٤٥؟.

إنها مرحلة «شخصية مصر» من حيث صياغتها التاريخية التى لم يختلف عليها إلا قلّة، آنذاك شخصية مصر فى الأساس حدّدتها

حضارة مصر الفرعونية وإمبراطوريتها الحضاريّة الكبرى، أهم دائرة للإشعاع الثابت الخلاّق وأطولها مدى فى تاريخ البشرية، منذ بداية الأسرة الأولى حتى القرن الثالث قبل الميلاد. ثم مرحلة الحضارة المتوسطية والقبطية على وجه التخصيص، على رغم انفلات زمام السلطان إلى الخارج مؤقتا. ثم ابتداء من الفتح العربى، من القرن السابع حتى عصرنا، مرحلة الحضارة الإسلامية العربية، وريثة المسيرة الحضارية الطويلة التى راحت تتحرّك فى دوائر أوسع بكثير من المحيط إلى الخليج عربيًا وكذا من الأطلسى إلى الهادى إسلاميا.

وفى هذا الجو التساؤلى، أو بوجه أدق فى هذه المرحلة الثانية من التساؤل المصرى، اشتدّت حدّة الصراع مع القوى المهيمنة الرافضة بحيث راح شعار «الوحدة الوطنية» يصب فى دائرة صراعات سياسية أكثر فعالية أو حتمية: من شعار «الجبهة الوطنية المتحدة» الذى رفعته القوى الوطنية التقدمية حول «اللجنة الوطنية للعمال والطلبة» فى الأربعينات حتى مجموعة الشعارات التى تحقق «تعبئة» القوى الوطنية فى «اتحاد» وجهته الاشتراكية فى المرحلة الثانية من عهد جمال عبد الناصر.

.كيف نكون؟

٣ - ثم كانت المرحلة الثالثة التى نحياها ويواجه فيها الوطن

والأمة تحديات الانتقال من تغيير العالم إلى صياغة العالم الجديد بحيث أصبح جو التساؤل هو: كيف نكون ؟ ليس فقط على أية صورة نكون ؟ وإنما - وأيّا كانت الصورة التى نختار أن نكون عليها - كيف يمكن إيجاد الوسائل والأدوات التى تمكّننا من تحقيق هذا الهدف ؟

إنه سؤال طبيعة الخصوصية الحضارية الكامنة، والمرتقبة، واستجلاء إمكانات تحركها وإعطائها وإبداعها وخصوبتها فى عالم جديد، وعندنا أن المفهوم الأقرب إلى المنال الذى يمكن أن يحقق أهداف الوحدة الوطنية، الجبهة الوطنية المتحدة، التعبئة، والاتحاد، فى هذه المرحلة الثالثة يمكن أن يُعبرَعنه بمفهوم التراكم الوطنى الذى يهدف إلى جمع الشمل، تاريخيا، مجتمعيا، سياسيا، فكريا، إراديا.

وإن فرضنا جدلا أن مفهوم التراكم الوطنى مقبول كنقطة بدء، ولا متعدد كشعار قومى أو منهج فكرى كيف يتجلى ويتحقق ؟ فى جو السوق وقيمه العشوائية فى جو التنافر والخصومة والتفرّد والعدميّة ؟ كيف يمكن اجتياز غابة السواد ؟ وهل من خطوات ممكنة وفعّالة تعيننا على التقدم ؟

هنا، مرة أخرى، الرؤية المستقبلية ابتداء من الواقع القائم على الرصيد التاريخى الهائل، تشير بأن الممكن ممكن.

الخطوة الأولى، الأبسط والأصعب فى آن واحد، إنما هى رصيد الإنجاز. ونعنى بذلك أن تصارع السير الذاتية يجب أن يعلو عليه

تأكيد معانى الاستمرارية الوطنية واتصالية الشخصية القومية والاعتراف الدقيق بالمنجزات فى كل مجال وبيان الذاتى فى كل مرحلة وكذا حدود هذه الإيجابية وقصورها وأسباب ذلك.

إنجازات عبور أكتوبر ١٩٧٣ - مثلا - قائمة ولاشك على أداء القوات المسلحة المجددة بين ١٩٦٧ و١٩٧٣ وهى تعود بنا - وكيف لا ؟ - إلى تاريخ جيش مصر من إبراهيم باشا إلى الضباط الأحرار. وهذه تدفعنا إلى إعادة النظر فى عطاء المماليك وخاصة فى القرن الثامن عشر حول على بك الكبير. مما يدفعنا إلى دراسة مكانة صلاح الدين الأيوبى المتميزة فى فن الحرب الاستراتيجية. ثم - وكيف لا - نتجه بالنظر إلى جيوش الشمس، وهو اسم جيوش مصر أيام مجدها الفرعونى بقيادة رمسيس وتحتمس على وجه التخصيص. إن مسيرة جيش مصر، لو نظرنا إليها من هذه الزاوية وبشىء من التدقيق والتحليل الواقعى الموثق، لتبين لنا أننا أنجزنا وما عجزنا. ثم كيف أنجزنا ما تم، ولِمَ لَمْ نتمكّن من تخطّى العقبات فى مراحل أخرى.

وكذا الأمر فى مجال الوجدان والفكر، سوف تتبدّى أمامنا، عبر هذا المدخل، معانٍ تتمركز حول استمرارية وشموخ الإيمانية المصرية سوف ندخل طريقًا نَيِّرًا من المنجزات الأدبية والفنية وكذا الرسائل الفكرية لايزال كل منها محجوزًا عليه فى مدرسته أو مذهبه أو حزبه أو جماعته.

من الفلاح الفصيح والكاتب المصرى إلى سيد درويش ومحمود مختار، من جامعة عين شمس الفرعونية إلى طه حسين وعلى مصطفى مشرفة ومراد كامل وعلى إبراهيم وعبد الرازق السنهورى.

رصيد الإنجاز بوصفه بداية الطريق إلى تحقيق التراكم الوطنى وهو الطريق الذى تضيئه الجهود الرائدة التى يقوم عليها. والتى يبدو معها أن تحقيق الفعاليّة المرتقبة ممكن مادامت تُعنى بإنجاز الأجيال ورصيد العطاء المصرى، صاحب العقل دوما، وبوصفه قاعدة كل تجديد.

وإلا فما هو الطريق المغاير، البديل ؟

الطريق الذى يسعى إليه مع الأسف عدد من المتعجلين، هو الارتباط بتراكم الغير، إن جاز التعبير: مدرسة ما بعد التاريخية هنا، وتفكيكية هناك، بنيوية فى مجال، عدميّة فى مجال آخر، إلخ مجموعة من معطيات هى ناتج لمسيرات أخرى لها مشروعيّتها فى إطارها التاريخى والمجتمعى المغاير، ولها أيضا - وكيف لا -، تأزمها وحدودها إلى درجة دفعت أرفع مستوى روحى فى الغرب، بابا روما، إلى التنديد بثقافة الموت، فى روما أولاً ثم فى واشنطن عاصمة أمريكا ثانيا.

وبغض النظر عن تشابك القضايا الخارجية واختلاف الرأى فيها فسوف نقول إن هذه ليست مقومات التراكم الوطنى والاستمرارية

الحضارية المصرية فى قلب الدوائر العربية والإسلامية والشرقية النابضة بالحيوية والتجديد فى عصرنا.

دعوتنا باختصار شديد، ليست إلى القطيعة، إلى الرفض، إلى السلبيّة. وإنما هى إلى الاتصال أولا وقبل كل شىء بأدائنا التاريخى - مع الإلمام بكافة تجارب العصر - ودعوة الجيل الجديد من العاملين فى مجالات السياسة والمعرفة إلى دراسة هذا الأداء والإفادة منه، والاعتزاز به، وتحليل أسباب قصوره، اختصارًا للوقت اللازم لتأمين مصر ومضاعفة القوى الكامنة المتراكمة فى أعماقها، وذلك بغية مواجهة تحديات العصر والعبور بشكل متماسك إلى فعالية قومية حضارية تحيى الأمل فى قلوب الشباب وتمكنهم من المشاركة فى صياغة العالم الجديد.

سلامة موسى
رائد التفكير العلمى فى مصر

لا شىء يرفع مقام الوطن والوطنية فى بلاد مَّا مثل إحياء ذكرى الرجال الذين أخلصوا فى خدمتها، وقضوا أعمارهم فى العمل لإعلاء شأنها وتحقيق آمالها، ولا شىء يميت الوطن والوطنية مثل تمكن داء النسيان فى أمة وجهلها لتاريخها وعدم تقديرها للرجال المخلصين فى خدمتها.

(مصطفى كامل، ١٠ مارس ١٩٠١)

(إن بؤرة إيمانى هى الإنسانية بمن تحوى من فلاسفة وأنبياء وأدباء وبما تحوى من شجاعة وذكاء ومروءة ورحمة وجمال وشرف.. وحين أتأمل شخصيتى وأهدافى أحس أنى أؤدى فى مصر فى القرن العشرين ما كان يؤديه رجال النهضة فى أوروبا فيما بين سنة ١٤٠٠ وسنة ١٨٠٠، ولذلك أجد قرابة روحية ونشاطا رساليا بينى وبين (ليوناردو دفنشى) و(فولتير)، و(ديدرو)، ومن إليهم. ومن هنا دعوتى إلى العقل، وإلى استقلال الشخصية بدلا من التقالبد.. أننى اؤمن بالحقائق، ومن هنا تعلقى بالعلم لأنه حقائق وإذا كان لابد من عقيدة فإنى أؤمن بها عندما تكون ثمرة الحقائق العلمية.

وأؤمن بأنه ليس فى الدنيا أو الكون أو المجتمع استقرار، لأن التطور هو أساس المادة والأحياء والمجتمعات، أى أساس الوجود وأن الجمود الاجتماعى هو معارضة آثمة من الأشرار لسنن الكون والحياة. سلامة موسى: (تربية سلامة موسى) لابد أن تقوم بينها تناقضات وصدام طبقى. ولكن ليس حتما أن ينقلب هذا الصدام إلى خصومة تتمخض عن حرب أهلية، وخاصة إذا ما ساد البلاد حكم ديموقراطى سليم واتسعت الحريات الشعبية. فالصدام فى هذه الحالة يكون فى حدود سلمية، صدام أقرب ما يكون إلى التنافس بين القيادات السياسية المختلفة أيها أكثر خدمة للشعب، وأحرص على مصالح المصريين دون مصالح فئة محدودة أو أقلية صغيرة، ثم أيها أبعد نظرا وأسلم تقديرا للأمور.

وهناك بعض النقط المهمة أغفلها المؤلف، أو ربما لم تظهر فى هذه الطبعة.

معلوماتنا الثقافية فى المرحلة القادمة، دور الأحزاب بين ١٩١٩ و ١٩٥٢، تفاصيل معارك ١٩٤٥/١٩٤٦، إلقاء ضوء أكبر وتقديم تحليل أعمق لمسألة المساعدات الأجنبية. نرجو فقط الالتفات إليها فى الطبعات القادمة.

والآن، تعالوا بنا نحيى هذا التاريخ العلمى الأول لحركتنا الوطنية المظفرة ونحيى المؤلف الذى أتاح لنا هذا السلاح الجديد فى معركتنا

من أجل الغد، ومن أجل مصر الجديدة حيث سيكون الخبز والورد والكرامة والحرية موفورة للجميع.

مصر للمصريين:

لقد قضيت عمرى إلى الآن فى بقعة مضطربة من هذا الكوكب، هى مصر. وعشت هذا العمر وأنا أرىٰ انتقالها المتعثر من الشرق إلى الغرب، أى من آسيا إلى أوروبا، وعاينت مخاضها وهى تلد هذا المجتمع الجديد الذى لايزال طفلا يحبو، كما عاينت كفاحها للإنجليز المستعمرين وللرجعيين المصريين، وكل هذا يستحق أن يروى وأن يقف عليه الجيل الجديد. إن قصة كل منا هى قصة فترة مفردة تستحق أن تروى وتقرأ، كلنا يجب أن يتحدث عن نفسه. هكذا كتب سلامة موسى عام ١٩٤٧.

كانت مصر عام ١٨٨٧ جزءا من الإمبراطورية البريطانية. كانت بيئتها الاجتماعية تركية فى جميع نواحيها، كانت العقلية القديمة المتخلفة تسيطر على كل جانب من جوانب حياتنا العامة والخاصة. نشأ سلامة موسى فى أسرة ريفية متوسطة الحال، شديدة التمسك بالتقاليد، وعرف أهوال المدرسة المصرية المظلمة آنذاك. وقصد القاهرة لأول مرة عام ١٩٠٣ تلميذا بالمدرسة الخديوية وشاهد بها السيارة (الأوتوموبيل) لأول مرة، وحملة قاسم أمين لتحرير المرأة، وأولى جولات الحزب الوطنى.

إنه يصف كيف كانت دعوة مصطفى كامل إلى تركيا سببا فى تمزيق وحدة الحركة الوطنية المصرية، إلى أن جاء لطفى السيد: (لم يصلح هذا الفساد القومى غير أحمد لطفى السيد. أسس (الجريدة) ودعا دعوة مصرية بحتة ليس فيها شىء من الدعاية للأتراك أو العرب وظل أحمد لطفى السيد فى الجرائد ينافح عن هذه البديهية الواضحة، وهى أن مصر يجب أن يملكها المصريون دون الأتراك ودون الإنجليز. ووجد فى البداية مصادمة قوية من الكتاب الذين ألفوا الدعوة للأتراك، ولكن سرعان ما انتصر وظفر بالرأى العام فى مصر. ووجد المثقفون فيه أملا جديدا يعبىء الأمة للإصلاح والتجديد).

ما هو الاستعمار:

كرومر، جورست، كتشنر- هؤلاء حكموا مصر باسم الجلالة الإمبراطورية حتى ثورة ١٩١٩. كان الأول لوردا لا يعد هتلر شيئا بجانبه من حيث الاعتقاد بان الأوروبيين يفضلون الآسيويين والأفريقيين. كانت سياسته كالآتى:

١ - قتل الصناعة المصرية قتلا تاما بحيث لا يجوز لمصرى أن يُنْشِىءَ مصنعا إذ إن على مصر أن تستورد جميع المصنوعات من انجلترا، بل وغير انجلترا إذا اقتضى الأمر ذلك، حتى لا يتعلم المصريون شيئا من الثقافة الصناعية.

٢ - إحالة القطر المصرى كله إلى مزرعة للقطن، وكأنه ضاحية لمصالح لنكشير، وتوجه نشاط الحكومة إلى هذه الغاية، حتى فقدت كلمة (مشروعات) معناها اللغوى عند الحكومة، وأصبح معناها اللغوى الوحيد زيادة المياه للرى حتى تزيد مساحة الأراضى التى تزرع قطنا.

٣ - قصر التعليم وتحديد عدد المدارس لتخريج الموظفين للحكومة فقط، وذلك بعد قصر نشاط الحكومة على مهمة واحدة فقط هى زراعة القطن وتصديره.

٤ - المحافظة على تقاليدنا التى ورثناها من القرون المظلمة وكانت وخرنا، وأهمها تثبيط تعليم المرأة، وقد اتبع من جاءوا بعده هذه الخطط كلها، حتى إننا لم نؤسس مدرسة ثانوية للبنات إلا فى ١٩٢٥).

ثم جاء (جورست) وزاد على ذلك الوقيعة بين المسلمين والأقباط، وزاد أيضا حبا متبادلا بينه وبين الخديو عباس على حساب الشعب ومن بعده اللورد (كتشنر) صغيرا فى أساليبه، شرسا فى مبادئه الإمبريالية.

يقول سلامة موسى: كانت مدرسة الطب محدودة العدد حتى إن خريجيها فى بعض السنين لم يكونوا يزيدون على ٦ أو سبعة فى العام كله، وكان أطباء الجيش المصرى يجلبون من لبنان من خريجى الكلية الأمريكية ببيروت، وأذكر فيما بين ١٩٠٠ و ١٩٠٥ أنى لم أر

طبيبا مصريا، ولم أكن أسمع عن طبيب مصرى، إذ كان كل الأطباء الممارسين بالقطر المصرى أجانب من اليونان أو الإيطاليين أو الإنجليز او الفرنسيين. أما من ناحية الصناعة، فقد عرفوا المصنع فى عام ١٩٠٤ بأنه (محل مقلق للراحة أو مضر بالصحة أو خطر) ولا يزال هذا التعريف قائما إلى الآن، وهو يكفى لإقفال أى مصنع فى العالم..

وهو يبين لنا أسباب انتشار الأمراض فى ريفنا المصرى بعد تحويل مصر إلى مزرعة قطن كبيرة (وقد فشت ديدان البلهارسيا والانكلستوما والاسكارس التى لم تكن نعرفها فى عام ١٩٠٠ إلا قليلا جدا، إذ لم يكن الفلاحون ممن يحملون هذه الديدان فى أجسامهم تأكل لحومهم وتشرب دماءهم من ١٨٩٠ إلى ١٩٠٠ سوى ٢ أو ٣٪، فأصبحوا الآن بفضل جنون الساسة التجاريين من الإنجليز نحو ٨٠ أو ٩٠٪ وأصبحنا أمة مريضة نحاول أن نشفى فلاحينا من هذه الديدان..

نهضة أوروبا:

ثم التقى سلامة موسى بالحضارة الأوروبية فى مهدها، فى فرنسا وانجلترا منذ ١٩٠٨ . وهناك التقى الشاب الوطنى المطلع إلى الثقافة والمعرفة بالفكر العالمى الحديث، كما التقى بالاشتراكية كنظرية وحركة سياسية. قرأ سلامة موسى جريدة (أومانيته) لسان حال الحزب الاشتراكى الفرنسى، وانضم إلى الجماعة الفابية الاشتراكية الإصلاحية فى انجلترا والتقى بكبار رجالاتها (برناردشو) و(هـ.ج ويلز)- وعرف جماعة العقليين من الفلاسفة والمفكرين الأحرار فى

لندن وباريس. وبدأ سلامة موسى يتساءل عن مغزى حياته، وعن هدفه من الدنيا، وهو فى مطلع الشباب:

ماذا أفعل فى هذه الدنيا؟ من هم خصومى الذين يجب أن أكافحهم؟ من هم أصدقائى الذين يجب أن أؤيدهم؟ ووجدتنى أفكر وأجيب: أجل، ليس لى مأرب فى هذه الدنيا. فلست أبالى أن أكون ثريا، لا بل لست أبالى أيضًا أن تكون لى زوجة وأطفال. وإنما قصدى أن أفهم، أن أعرف كل شىء، وآكل المعرفة أكلا. ثم عدت فقلت:

(ولكن لماذا؟ وأجبت: كافح. أكافح الإنجليز حتى يجلوا عن وطننا وأيضا أكافح تاريخنا. أكافح هذا الهوان الذى يعيش فيه أبناء وطنى: هوان الجهل وهوان الفقر. أجل إنى عدو للإنجليز وعدو لآلاف من أبناء وطنى، لهؤلاء الرجعيين الذين يعارضون العلم والحضارة العصرية. وصارت هذه الأفكار هما يؤرقنى).

وجاء كتابه الأول (مقدمة السبرمان) عام ١٩٠٩ يلخص هذه التجارب الأولى وفى ٤٠ صفحة. وظل سلامة موسى طيلة حياته يعمل لكى تعرف مصر معنى (عصر النهضة) الذى عاشت فيه أوروبا منذ القرن الخامس عشر.

هؤلاء علمونى:

يعقوب صروف، فرح أنطوان، أحمد لطفى السيد- يقول عنهم سلامة موسى: كان هؤلاء الثلاثة من القوات التى صاغت شخصيتى

الذهنية فالأول وجهني إلى طريق العلم.. والثاني بسط لي الآفاق الأوروبية للأدب. والثالث جعل من المستطاع لي، بوصفي غير مسلم أن أكون وطنيا في مصر.

ثم جاء دور أعلام الأدب والفكر في فرنسا وانجلترا وأوروبا: (نيتشه) الفيلسوف الألماني الذي ألّه الفرد على حساب العقل والمجتمع. (ايبسن) الذي خلق المسرح المعاصر خلقا هو و(تشيكوف)، ثم (برنادشو) (ويلز).

المغزى في (شو) أن الإنسان سيتغير، جسما ونفسا، لأن التطور يقضي بذلك؛ ورسالته هي أن يبعث وجدان التطور في قرائه. ولكن المغزى في (ويلز) أن المجتمع سيتغير، في نظمه وأخلاقه، لأن الآلات قد أحدثت قنوات اقتصادية جديدة. ورسالته هي أن يبعث في قرائه وجدانا هو أن هذا العالم قريتنا الكبرى، إلى أن يقول عن استاذية (داروين) و(ماركس):

(داروين وماركس)، كلاهما قد غرس في رأسي مركبات ذهنية وجعلني أنظر إلى الدنيا وإلى الأحياء في استعراض علمي وتحليل اقتصادي وسيكولوجي وعندما أستبطن إحساسي الديني أجد أن بؤرة هذا الإحساس هي التطور. والمتعمق في دراسة ماركس، لا يملك إلا الشعور بأنه هو- لا فرويد - الأساس الصحيح للفهم السيكولوجي. فإن ماركس أثبت أن العواصف الاجتماعية، أي التي نكتسبها مع

المجتمع، أكبر قيمة وأبعث على التغيير والتطور، وأثبت فى كياننا مما نسميه العواطف الطبيعية. ولذلك لا يقتصر فضل ماركس على أنه جعل الاقتصاد علما، لأن الحقيقة أنه جعل كذلك الأخلاق والاجتماع والسيكولوجيا علوما.

ثورة ١٩١٩

ويعبر سلامة موسى عن مفهومه عن ثورة ١٩١٩ الوطنية الكبرى بما يأتى: (وتبرز فى ذهنى ثلاثة أشياء عن ثورة ١٩١٩: **أولها:** الإكبار العظيم الذى اتخذه الأقباط ورفضهم أية مساومة مع الإنجليز بشأن حماية الأقليات..

والشىء الثانى هو وثبة المرأة المصرية المجتمع.

أما **الشىء الثالث** فهو النهضة الاقتصادية التى أثمرت بجهود طلعت حرب وغيره..

وقد بعثت فينا ثورة مصطفى كامل تفاؤلا عظيما كما بعثت تشاؤما عظيما عند المستعمرين الانجليز.

معركة الأدب الجديد

بدأ سلامة موسى اشتغاله بالصحافة منذ عام ١٩٠٩ بمقاله (نيتشه وابن الإنسان) الذى نشرته (المقتطف) آنذاك، وظل يكتب حتى يوم وفاته.

وفى عام ١٩٢٣ بدأت معركة التجديد فى الأدب. بدأها سلامة موسى، تماما كما بدأ من قبل معركة الاشتراكية. وكانت الأفكار الرئيسية لدعوته آنذاك هى:

(أن يكون لنا أدب مصرى عصرى وأن يكون لنا أسلوب عصرى فى التعبير لا يمت إلى الجاحظ أو غيره، مع مداعبة مستحبة للغة العامية وهى مداعبة لم تثمر، أن نأخذ بالأوزان والقيم الأوروبية فى النقد الأدبى دون أوزان الناقدين القدماء وقيمهم كالجرجانى وابن الأثير أو ابن رشيق. أن نجعل الأدب يتصل بالمجتمع ويعالج شئونه ويندمج فى مشكلاته. أن نوجد القصة والدراسة المصريتين. أن نجعل الأدب النسائى الغاية عالمى المشكلات).

وانطلقت أبواب الرجعية تندد بسلامة موسى وتطارده فى كل مكان وتجعل حياته جحيما لا يطاق، وتتهمه بالخيانة وتقذفه بأحط الألفاظ، والرجل يتألم، ويصمد ويواصل سيره ويدعم آراءه ويتعمق فى فهمه للمعانى الكبار التى اعتنقها

إنه يهاجم مذهب الفن للفن هجوما شديدا مقنعا: إن الأديب فى عصرنا يخون عصره إذا لم يكن سياسيا. وأعنى بالطبع السياسة العليا العالمية والقطرية ولا أعنى أن يستأجر أحد الأحزاب كاتبا.. ونحن نعيش فى عصر انفجارى يحفل بالانقلابات الاجتماعية والأدبية والعلمية. وذلك الأديب الزاهد الذى يعيش البرج العاجى إنما

يبتعد عن أهم الشئون البشرية حين يبتعد عن السياسة. وكل أديب له وجدان- بتطور العالم فى عصرنا- يحس أن واجبه الأول أن يكون هو نفسه عنصرا من عناصر هذا التطور، ولذلك يستحيل أدبه إلى أدب كفاحى سياسى.

الإنسان الحق

هناك من يستجيبون بالاعتزال، وهناك من يستجيبون بالإقدام والمكابرة وهؤلاء هم الذين ينتفعون بالاختبارات. أما المعتزل الذى يؤثر السلامة بالصدود والاعتزال والإحجام والانكفاف فهو ميت، حتى لو طال عمره إلى المائة، لأن الحياة لا تقاس بالطول وحده إذ إن لها عرضا وعمقا أيضا، ولا يكون لها العرض والعمق إلا بأن ننغمس فيها ولا نقف على ساحلها متفرجين بل نقتحم عبابها ولو تعرضنا بذلك للموت المبكر.

والإنسان المصرى يجب أن يدرك أنه وريث لتاريخ قاس كان سببا فى أزمة العقلية المصرية المعاصرة:

(إن مصر تقع فى ملتقى القارات الثلاث الكبرى، كما أنها تقع فى طريق الملاحة بين آسيا وأوروبا، ثم هى فوق ذلك تخلو من الجبال التى تيسر الدفاع عنها، ولذلك وقعت فى أسر الغزو المتكرر) ومعنى هذا أن المصرى المحب لوطنه يجب أن يعمل على بعثه من سباته العميق:

(إن أعظم العقبات التى تؤخرنا فى مصر كما تؤخر كثيرا من دول آسيا وأوروبا، بعد الاستعمار هى هذه الرواسب من الثقافات والتقاليد والغيبيات الفرعونية و لبابلية وأمثالها التى انحدرت إلينا. والبيئة الصناعية وحدها هى التى تحطمها لأنها لا تنهض إلا على العلم، وهو نار كافية لحرق جميع الرواسب وتبدد عفنها هباء).

وهذا ما فعله بالضبط سلامة موسى. وإن ظل وحده بين أهل القلم:

تعد مؤلفاتى من أدوات التطور الذهنى فى مصر. ففى الوقت الذى كنت أؤلف فيه عن (العقل الباطن) أو (نظرية التطور) وأصل الإنسان أو (البلاغة العصرية واللغة العربية) أو (حرية الفكر) ثم (حرية العقل) أو (غاندى والحركة الهندية) أو نحو ذلك مما يوجه ويفيد، كان غيرى يؤلفون عن الخلفاء الراشدين أو الأمويين أو العباسيين! أجل. كنت أنشد الآفاق وارتاد المجاهل فى الوقت الذى كانوا هم فيه يشرحون لقرائهم قواعد الفعل الماضى. ولكن الجمهور الذى يتعطش إلى الثقافة العصرية كى يفهم الحضارة العصرية لا يحب غير هذه الموضوعات القديمة، فيبقى قديما غير عصرى.

بين الجمود والخلود:

وجاءت أحداث ٢٣ يوليو ١٩٥٢، فحياها سلامة موسى تحية المصرى الصادق.

(كان خلع فاروق انتصارا للقومية العربية وليس محض انتقال من النظام الملكى إلى النظام الجمهورى، لأن الانتقال الأكبر كان من الحكم التركى الكردى الذى عاش ٧٧٦ سنة إلى الحكم العربى الذى سيعيش إلى الأبد بإرادة الشعب). وبدأت مصر ثورتها الاستقلالية، ثم تحولت إلى الثورة الصناعية. وكنا ننتظر جميعا أن يكون الرجل الذى كان رائدا للفكرة المصرية، والتفكير العلمى، والثورة الصناعية، والتطور، والاشتراكية، والثقافة الجدية، والسلام، أقول كنا ننتظر أن يحتل هذا الرجل مكانته فى الحركة الثقافية. ولكن العناصر المشبعة بالعقلية القديمة والتى مازالت تسمم جو الثقافة والتعليم والآداب والفنون فى الكثير من الأحيان ظلت تتنكر له وتنكل به بغية القضاء على سلامة موسى بعد أن أثبت التاريخ أنه على حق، وأنهم إلى زوال: لم يضمه أى منصب فى أى هيئة رسمية أو عامة فى مصر، ظل مبعدا عن الإذاعة،لم تدرج مؤلفاته ضمن الأعمال المصرية التى تقرر ترجمتها إلى اللغات العالمية، منع بعض الأساتذة الجامعيين موضوع رسالة للدراسات العليا لأنهم يكرهون سلامة موسى، لم يفكر أحد فى منحه جائزة أو تقدير عام، وكأن سلامة موسى لا يعيش فى مصر، وكأنه عدو للجميع، أو دخيل على شعبه، وكأن الجيل الذى يمسك اليوم الأمور لم يتربَ على أساس كتبه الأربعين، وكأننا نحن لم نفكر ولم نبن ولم نتحرك على هدى هذه الثورة الذهنية الكبيرة التى كان رائدها

سلامة موسى، وكأن كل مثقف عربى لا يدين له بمفاتيح المستقبل.

لكن مصر اليوم تتحرك بسرعة نحو مجتمع صناعى حديث يهتدى بالتفكير العلمى. عندئذ سيرتفع اسم سلامة موسى إلى القمة، ساطعا، ناصعا، كبيرا، فهو العالم الذى يفضله تغيرت العقلية المصرية فى القرن العشرين وبدأت تساير العالم المعاصر.

كلا، لم يمت سلامة موسى، وإنما بدأ يعيش حياته الحقة فى قلوبنا أجمعين فى سجل تاريخ الحضارة العالمية- تلك الحياة التى حالوا بينه وبينها، حتى يوم الاثنين ٤ أغسطس ١٩٥٨ يوم وفاته.

عبد العظيم أنيس
العلم والثورة فى سبيل النهضة

إذ تحتفل مصر بالأستاذ الدكتور عبد العظيم أنيس بمناسبة بلوغه الثمانين من عمره المديد إن شاء الله، ويدرك كلّ من شرف بمشاركته فى المسيرة الطويلة، وخاصة بنات وأبناء ذلك الجيل الذى كان على موعد مع القدر، وأجب التوقف عند علامات ورواد هذه المرحلة، بعد طول تغييب.

كانت الأزمة الاقتصادية الكبرى فى الثلاثينات من القرن الماضى بمثابة علاقة تفجير التناقضات والمواجهات بين المستعمرات والبلدان التابعة من ناحية والاستعمار والإمبريالية من ناحية أخرى، وكذا وفى الوقت نفسه رفع حدّة الصراع الطبقّى داخل المجتمعات الرأسماليّة. ومن هنا بدأت المرحلة الجديدة، للحركة الوطنية التحريرية المصرية تجمع بالبداهة وكذا بالواقعية بين هدف التحرر الوطنى من ناحية والعدالة السياسية والاجتماعية فى الداخل من ناحية أخرى، أى بين التحرير والديمقراطية. وبالفعل ازداد الاستقطاب بين الأحزاب السياسية المصرية، إذ وقفت أحزاب الأقلية موقف العداء الشديد ضدّ

حزب الوفد المصرى ممثّل الأمة، وذلك بدلاً من الاكتفاء بالمعارضة السياسية والبرلمانية المألوفة. وفى الوقت نفسه ازداد التمايز فى داخل الوفد بين أغلبية الشباب والكادر الثورى، وريث «التنظيم الثورى لثورة ١٩١٩. من ناحية وبين الاتجاه المحافظ فى قيادة الحزب من ناحية أخرى ثم كانت صحوة الحزب الوطنى على الشكل الجديد، ثم وخاصة «مصر الفتاة» التى سعت إلى قيادة الاتجاه الوطنى الثورى. هذا بينما اتسع نفوذ هيئة «الإخوان المسلمين» التى تأسست عام ١٩٢٧ وبدأت تفتح لطريق أمام توجّه سياسى إسلامى متميز عن الساحة الواسعة من الحركة الوطنية المصرية.

وفى هذا الجو السياسى العام، تصاعدت مشروعات ونداءات مختلفة، تسعى إلى فتح مجالات متنوعة من الاقتصاد إلى الثقافة، من الإيمانية والتراث إلى العلوم والتكنولوجيا، ولكنها جميعا تلاقت فى دائرة السعى إلى مصر الجديدة، أى إلى تحقيق نهضة مصر بدلا من التوقف عند حد صيغ سياسية جديدة فى المجالين الخارجى والداخلى. ومن أهم هذه النداءات - المشروعات كتاب «أهدافنا الوطنية» لمؤلفه شهدى عطية الشافعى وعبد المعبود الجبيلى (١٩٤٦)، الذى كان بمثابة رائد برنامج «اللجنة الوطنية للعمال والطلبة» - ومنها إلى المبادئ الستة لثورة الضباط الأحرار فى يوليو ١٩٥٢.

وكذا استعادت الحركة الشيوعية المصرية والحركة التقدمية بالوجه الأعم جمع الجهود المبعثرة إيذانًا بفتح صفحة جديدة تشارك القوى السياسية والمدارس الفكرية المصرية مواصلة المسيرة الطويلة من أجل مصر. ليس هنا مجال العود إلى تأريخ مختلف مكونات هذه الحركة، مادام الهدف هو تقييم مغزى الجديد فيها والذى منه وبقلبه وقفت مجموعة الرواد التى انتمى إليها عبد العظيم أنيس هو وزملاؤنا. توزعت الحركة الشيوعية المصرية فيما بعد إلى عدة تنظيمات جماهيرية تميزت من حيث تحديد الأهداف البعيدة وأنماط التنظيم، كما كان الأمر بالنسبة للتنظيمين الرئيسيين أى «المنظمة المصرية للتحرر الوطنى» (أساس «الحركة الديمقراطية للتحرر الوطنى» منذ نهاية ١٩٤٧) و«طليعة العمال» (التى أصبحت فيما بعد «حزب العمال والفلاحين»).

فهل كان التنظيم الجماهيرى، الأفضل، أو الأوحد؟ أم أن هناك ضرورة إلى مسعى آخر، أى إلى تكوين هيئة كوادر قادرة على الريادة الوطنية بالمعنى الأوسع؟

كان هذا هو خيار منظمة «شرارة» منذ مطلع الأربعينات، على وجه التحديد. وفى هذا الجو، أدرك عدد من الأعضاء المصريين البارزين أنه من الممكن، بل ومن الواجب رفع عمل تكوين الكادر الشعبى الوطنى إلى مستوى المهمة الجوهرية الملحة للحياة السياسية

والفكرية المصرية بكل وضوح، بدلا من الاكتفاء بمستوى التنظيمات السرية التى استوجبتها آنذاك عدة قوانين.

كانت هذه رسالة كبار رواد الشباب حول شهدى عطية الشافعى وعبد المعبود الجبيلى وزملائهم فى القاهرة، بينما تولى عبد العظيم أنيس الريادة فى الإسكندرية. هكذا تأسست «دار الأبحاث العلمية» فى القاهرة عام ١٩٤٢، ومن بعدها فى الإسكندرية. كان الهدف هو إيجاد مؤسسة قانونية سياسية علمية فكرية تستقطب طلائع شباب الحركة الوطنية والتقدمية الراغبين فى المشاركة المؤثرة فى مختلف قطاعات الحياة العامة، دون الاقتصار على حدود طبقه أو فئة اجتماعية محدودة على رغم أهميتها. وقد تم بالفعل تجمع عشرات ثم مئات من الشباب المصرى المتعلم الذى قرر أن يعدّ نفسه على أرفع مستوى متاح آنذاك فى مختلف أفرع التخصصات الضرورية لطلائع الغد، وخاصة السياسة الداخلية، والسياسة الخارجية، والاقتصاد، والتعليم، والثقافة، والقضية النسائية.

أصبحت «دار الأبحاث العلمية» مدرسة كادر وطنى تقدمى مصرى يستعد إلى تقديم البدائل للكوادر القاتلة للاحتلال الأجنبى والتفرقة الطبقية. أى إن مدرسة الكادر المصرية الجديدة كانت تسعى بكل وضوح إلى تقديم رؤية جديدة تستطيع طواقم جديدة من الكادر أن تنجزها على امتداد التاريخ الوسيط.

أصبحت نهضة مصر هى الرؤية الجديدة، بدلا من مجرد رفع الأعلام وتغيير الأنظمة أى إن الحركة الجديدة التى حركتها « دار الأبحاث العلمية » كانت تمثل ثانى محاولة لتكوين كادر مجتمع مصرى متحرر عادل تقدمى بعد المرحلة الأولى التى كان رفاعة الطهطاوى رائدها التاريخى فى قلب المرحلة الأولى من نهضة مصر فى عصر محمد على. وبطبيعة الأمر سعت « دار الأبحاث العلمية » على توطيد الصلة بالهيئات المواكبة وخاصة « لجنة نشر الثقافة الحديثة » ودائرة مجلة « الفجر الجديد » و « اتحاد خريجى الجامعة »، ثم الحركة النقابية العمالية المصرية من أوسع الأبواب، وكذا كان لثنائى « الشرارة » و « دار الأبحاث العلمية » امتداد هام تجاه طلائع جيش الوطن وكذا الحركة الوطنية والديمقراطية فى السودان.

اللجان المتخصصة تدرب الكادر حول برامج تمتد إلى سنتين فى معظم الأحوال. هذا بينما يتيح جو التلاقى والنقاش المفتوح حول محاضرة يوم الخميس من كل أسبوع فرصة لاتساع حلقة المشاركة والمناظرة والتعاون. بل اجتماعات يوم الخميس المفتوحة فتحت ذراعيها لوجوه من الجيل السابق التواق إلى مشاركة جيلنا الجديد (آنذاك) فى البحث والإعداد، كما كان شأن سلامة موسى وعصام الدين حفنى ناصف وكذا عزيز فهمى ومحمد مندور وإسماعيل

الأزهرى بين طاقم مرموق منح الكثير وأسهم بسخاء فى تكوين كوادر « دار الأبحاث العلمية » .

إلى أن كان عام ١٩٤٦، عام انتخاب « اللجنة الوطنية للعمال والطلبة » من قواعد هرم مؤسسة التعليم إلى القمة وكذا الأمر فى معظم الاتحادات النقابية.

كانت هذه لحظة تجديد مصر على أيدى بنات وأبناء شعب مصر.

كانت هذه لحظة بدء العمل من أجل بلورة رؤية وطنية تحريرية تقدمية تستطيع معظم قطاعات المجتمع المصرى والتنظيمات السياسية ومدارس الفكر أن تتعارف على آمالها ومشاعرها القلبية وطموحاتها الوطنية فى مرآتها. من هنا جاء الإسهام التاريخى الذى استطاعت « دار الأبحاث العلمية » أن تقدمه لمصر المستقبل، وذلك فى حول الكتاب بيان « أهدافنا الوطنية » فى الأساس.

كان صدور هذا البيان السياسى الفكرى فى لحظة تحرك « اللجنة الوطنية للعمال والطلبة » نذيرًا بإقامة الخط العام للحركة الوطنية المصرية المعاصرة حتى اليوم. الأولوية المطلقة للتحرر الوطنى على أن يتم ذلك فى موكبة العدالة الاجتماعية ومشاركة الشعب العامل فى الديمقراطية الجديدة. مجانية التعليم جنبًا إلى جنب مع إنشاء ثقافة وطنية تضيىء المسيرة. تحرير الاقتصاد المصرى من التبعية وإقامة اقتصاد عصرى تجاه مجتمع صناعى معاصر يمثل أساس التحديث

(أو التنمية كما نقول اليوم). جيش وطنى قوى هو درع الوطن ورمز عزته. كيف يمكن تحقيق هذه الأهداف ؟ جاءت إجابة « دار الأبحاث العلمية » فى كتاب - بيان « أهدافنا الوطنية » واضحة قاطعة: إن الجبهة الوطنية المتحدة التى تجمع بين جميع القوى السياسية والمدارس الفكرية الوطنية هى وحدها القادرة على تحريك الجمود وقيادة المسيرة، وذلك بدلا من الوعاء الحزبى التقليدى.

الأهداف وكذا أداة الإنجاز، تسعى إلى تحقيق نهضة مصر بدءًا من تحريرها وتحقيق العدالة بين أبناءها، وذلك إيمانًا من الجيل الجديد للحركة الوطنية المصرية، دون استثناء وعلى تنوع توجهاته وحساسياته، بأن حضارة مصر تستطيع أن تنتعش على رغم ظلمات الاحتلال والقهر، لتقدم إسهامًا نيرًا لصياغة عالم جديد.

رسالة عمر مديد نير قضاه عبد العظيم أنيس، عالمًا ومفكرًا ومناضلاً وقائدًا مع صحبه وزملائه رمزًا لأصالة مصر، شعبا وأمة وحضارة حية تضيئ لن تقبل التغييب.

رسالة فتحى رضوان: مصر الشرق

لم نكن على موعد، أو هكذا قال خبراء العصر الغابر، عندما كنا نتحسس طريقنا فى الظلام. ثم ردد أمثالهم نفس المعنى فى زمن التخبط ثم التردى وفقدان الاتجاه. وكان هو قد رحل إلى رحمة الله تعالى. أراد أن يجمع بيننا فكرا وعملا بعد أن انقشعت الغيوم والتفسيرات المزيفة وانحراف الرؤى. كان فتحى رضوان، عميد الحركة الوطنية المصرية ينتمى إلى جيل الثلاثينات، ولعله أكثر الأجيال غموضا فى الشارع المصرى وكذا بين الطلائع، وهو الجيل الذى جاء على أنقاض ثورة ١٩١٩، جيل استقرار الحكم للاستعمار البريطانى وحلفائه حول القصر، قبل الثورة الشعبية فى ١٩٣٥ - ١٩٣٦، التى أدت إلى عودة الوفد وعقد معاهدة ١٩٣٦ للتدرج نحو الاستقلال المحاصر.

كان الجيل، جيل عقد الثلاثينات، مليئا بالتناقضات والتشتت. نجح أعداء مصر فى إبعاد الوفد، حزب الأغلبية عن الحكم بعد ١٩٢٧. وكانوا قد نجحوا فى توجيه الضربة القاضية لثورة ١٩١٩، عندما أجبروا قيادة الوفد المصرى على التحول من الثورة بقيادة التنظيم السرى للحزب وعلى رأسه القائمقام (عقيد) عبد الرحمن فهمى

سكرتير عام الوفد آنذاك، وفى قلبه منظمة الكادر اليد السودا، شريطة قبول المحتل البريطانى أن يتفاوض مع باشوات الوفد بعد عودتهم من المنفى. وفى الوقت نفسه، أى فى نهاية العشرينات، تم إقناع الوفد بإقصاء الحزب الشيوعى لمصرى بزعامة حسين عرابى من الحلف معه ضد الاستعمار. فكان أن تولت أحزاب الأقلية الحكم فى الأساس، اللهم إلا لفترات قلائل. كان المشهد غريبا من جميع النواحى. هذا مثلا طلعت حرب باشا يرفع شعار «نريد بنكا مصريا لكل المصريين!». فيتم تأسيس بنك مصر (١٩٢٠ - ١٩٢٣)، ومن بعده شبكة الشركات الصناعية والزراعية والتجارية والتأمينية التى كانت تمثل هرم الاقتصاد الوطنى المصرى على رغم الاحتلال. ثم يجىء المحتل البريطانى بإسماعيل صدقى باشا رئيس اتحاد الصناعات المصرية القوى، ألد أعداء الوفد، وإذ به يفرض الرقابة الجمركية على حدود مصر عام ١٩٣٠ ليحمى المؤسسة الصناعية المصرية التى يرأسها طلعت حرب الوفدى البارز إسلامى التوجه.

ما معنى هذا كله؟ أتخبط؟ أم تلاق دون مغزى؟

أيام مشروع القرش

ثمة أشياء غريبة أخرى. أذكر مثلا أنه بعد وفاة والدى المبكرة، كان عمى الأصغر فايز فؤاد عبد الملك يدعونى كل يوم أحد إلى مقهاه المفضل فى حى غمرة ثم بعد عصير الفواكه أو الشاى يضع

طربوشه مقلوبا، أى القاعدة على المائدة وفتحة الطربوش إلى فوق، وأمامه لافتة مكتوب عليها: .أسهموا فى مشروع القرش، لبناء الصناعة الوطنية المصرية!. فتنهال قروش الصاغ والجنيهات، فيفرح عمى ويقهقه وأنا فى ذهول. وإذ به يقوم - كما أدركت فيما بعد - بمجرد واجبه بوصفه عضوا فى مصر الفتاة بقيادة الزعيم الراحل أحمد حسين. وكنا نسمع بعد مرور السنين أن أحمد حسين ذهب لمقابلة هتلر فى ألمانيا، وأنه أصبح نازيا: .القمصان الخضراء، تمثلا بالتنظيم الشبابى الألمانى، بينما أمر الوفد بتكوين منظمة القمصان الزرقاء للرد على أحمد حسين، ولم يقل أحد على الوفد بقيادة مصطفى النحاس، أبرز زعماء الأحزاب المصرية منذ رحيل سعد زغلول، إنه نازى.

تساءلت، تساءلنا: ما معنى هذا التناقض؟ قال الحكماء: الوفد جاء بالانتخاب بينما مصر الفتاة لم تدخل انتخابات، لأن المحتل البريطانى رفض أن يسمح لها بذلك. بطبيعة الأمر ازداد الغموض.

ثم ظهر تنظيم سياسى مواكب فى بداية الثلاثينات باسم الحزب الوطنى الجديد، تيمنا بالحزب الوطنى الأصلى الذى أنشأه محمود سامى البارودى قبيل الثورة العرابية عام ١٨٧٩ - ١٨٨١، ثم قاده مصطفى كامل ومحمد فريد. كان على رأس الحزب الجديد كوكبة من الوجوه الجديدة: عبد الرحمن الرافعى بك مؤرخ الحركة

الوطنية المصرية وعميد المدرسة التاريخية فى هذا القرن، وفتحى رضوان المحامى والدكتور نور الدين طراف، وعبد الرحمن بدوى الشاب (آنذاك) أستاذنا الجليل فى الخمسينات.

وارتفعت الأصوات نفسها تقول: إن هذا الحزب حزب نازى: أفلم يذهب بعض أقطابه للقاء هتلر أثناء الألعاب الأوليمبية فى نورمبرج (١٩٣٦)؟ ثم ألم يعد فتحى رضوان وقد ظهر له شنب قيل إنه يشبه شنب هتلر؟ إذن هؤلاء لا شك فى ذلك من المعسكر الآخر: وطنيون نعم، لكنهم مع الآخرين.

تمر سنون قلائل، ويلتحق كاتب هذه السطور موظفا بالمركز الرئيسى للبنك الأهلى المصرى فى خريف ١٩٤٠، نفس المبنى الذى يقيم فيه الآن البنك المركزى المصرى على تقاطع شارعى قصر النيل وشريف أمام عمارة الإيموبيليا. وكنت أنا وجماعة من زملائى قد اتجهنا إلى الاشتراكية الثورية وبدأنا تكوين الحلقات والجمعيات التى أصبحت فيما بعد الحركة التقدمية ثم الحزب الشيوعى المصرى من الأربعينات إلى الستينات. كان العدو بطبيعة الأمر هو الاستعمار البريطانى وحلفاءه من أحزاب الأقلية حول السراى، أعداء الوفد حزب الأغلبية. وكان العدو - أثناء الحرب العالمية (١٩٣٩ - ١٩٤٥).

العدو البعيد الذى حدده حلف انجلترا وأمريكا ثم فى الأساس الاتحاد السوفيتى هو المحور الألمانى النازى والإيطالى الفاشى، فى اليابان، الذى

دخل فى حرب شاملة للسيطرة على أوروبا فى شمال شرق آسيا للقضاء على الدولة الاشتراكية الأولى فى التاريخ، الاتحاد السوفيتى.

كيف يكون الموقف معقولا وواقعيا فى آن واحد؟ هل نؤيد التحالف مع انجلترا، الدولة المحتلة لمصر ضد ألمانيا النازية؟ هل نتجه إلى الحياد؟ مع العلم بأن الامتناع عن الحركة فى أثناء التقلبات العالمية معناه التهميش والزوال من الصورة؟

إلى الأمام يا روميل! لماذا؟

وسرعان ما جاءنا الجواب، مذهلا ساطعا. فى يوم لا أنساه من خريف ١٩٤٢، وبينما كنت أعكف على عملى فى قسم الحسابات فى البنك الأهلى المصرى، سمعنا هتافات مظاهرة كبرى تأتى من النيل متجهة إلى قلب العاصمة عبر شارع قصر النيل. كان الفيلق الإفريقى الذى أرسله هتلر عبر شمال إفريقيا لضرب الاتحاد السوفيتى من الجنوب قد عبر الحدود الليبية - المصرية متجها إلى الإسكندرية والقاهرة، ثم قناة السويس. وإذ بالمظاهرة الكبرى تسير تحت راية تحمل شعارًا .إلى الأمام ياروبيل. أى إلى الأمام يا قائد الفيلق الإفريقى الألمانى، الفريق أيروين روميل، ثعلب الصحراء ألمع ضباط الجيش الألمانى فى عصره. تساءلت، تساءلنا فى تحفظ وذهول: ما هى الحكاية؟ أليس هذا الشعب هو شعبنا المصرى؟ وألسنا نحن الثوريين طليعة الشعب المصرى؟ كيف يمكن أن يكون الشعب على

عكس رأى الطليعة، أى أن ينتصر للجيش الألمانى وكأنه محرر للبلاد ونحن ندين ألمانيا النازية ونحن نسكت على الاحتلال البريطانى باسم إنقاذ الديمقراطية؟ كانت صدمة للشباب، صدمة للجيل الذى قال عنه فيما بعد جمال عبد الناصر إنه كان على موعد مع القدر. وكان فى طليعة المتظاهرين إخواننا من حزب مصر الفتاة والحزب الوطنى الجديد ومن ورائهم شعب القاهرة.

حقيقة: لم نكن على موعد، وتشاء الظروف أن تقدم القناة الأولى للتلفزة الألمانية فيلما عن حروب، أى سيرة المارشال ايروين روميل، وفى قلبها تلك المظاهرة الكبرى فى شارع قصر النيل أمام البنك الأهلى المصرى متجهة إلى قلب العاصمة.

عبد الفتاح صبحى
وحيدة فى أصول المسألة المصرية

رحلة

صبحى وحيدة إلى أعماق مصر إلى ما اطلق عليه المستعمرون المسألة المصرية تستمر الموجة تلو الموجة وتؤكد طاقات الشعب والأمة على الدوام برغم القهر والعدوان.

طاقات هى مقدمة أركان شخصية مصر - وقد أصبحت هذه الشخصية معضلة أو مشكلة تؤرق بال العدو المحتل - ومن ثم تسمية المسألة المصرية وكأن وجود مصر على قيد الحياة عبر عشرات الأجيال عقبة لا يمكن إزالتها.

أمثلة قليلة نجدها هنا وهناك فى كتب العصر وهى تشعرنا بأن الأمر لم يكن شذوذا، وإنما كان قاعدة عامة فى عهود السلاطين جميعا وفى دواوين الحكومة ودواوين الأمراء على السواء.. وكان هؤلاء الرجال يأتون من صميم الطينة المصرية ويشتركون فى الحكم ويوجهون مصائره دون أن يكون فى سلوكهم شىء من روح العبودية الذى أراد أن يراه الذين عرضوا لتاريخ ذلك العصر قياسا على ما حدث تحت حكم المماليك.

هل تعلم أن أهل المدن كانوا يصنعون وقتئذ أنواع السلاح جميعا ويحملونها فى الطرق ويتبارون بها فى الميادين العامة ويشتركون فى حرب المغول والصليبيين وأن أهل الإسكندرية كانوا يملكون على أيام ابن بطوطة مستودعات كبيرة تزخر بأنواع السلاح ويرفضون أن يقوم السلطان بالدفاع عن المدينة من دونهم، ونعلم أن أبناء البلاد جميعا كانوا يجتمعون وقتئذ فى نقابات لها قوانينها وتقاليدها ورؤساؤها وأن هذه النقابات كانت تتمتع إزاء أعضائها بسلطة إدارية - قضائية - مالية واسعة تجعل منها وحدات حكومية قائمة بذاتها تعترف بها الدولة، وتعتمد عليها، وتحسب حسابها إلى حد بعيد ؟

الموجة الغربية

يدخل صبحى وحيدة مرحلة التاريخ الحديث من بوابة الحملة الفرنسية، يرى فيها غزوا لقوة أكثر تقدما من الناحيتين العلمية والعسكرية، والسياسية فى المقام الأول، ساعيا لمتابعة مقاومة شعب مصر عبر ثورات القاهرة والإسكندرية عبر كتابات الرواة والمؤرخين.

١ - حتى يلتقى بمحمد على فى صفحات لا تنسى:

وكانت سياسة محمد على تقوم على الاحتفاظ بمصر وتقويتها والقدرة على الدفاع عنها ثم تمتد بدافع تخوفها من انهيار الإمبراطورية العثمانية، وطموحه الشخصى، إلى الرغبة فى توسيع حدودها والبلوغ بها إلى الخطوط الطبيعية التى تمكنها من القيام بنفسها، ثم تعلو

إلى محاولة الوصول إلى الآستانة لتحقيق ما كان يصبو إليه العالم الإسلامى حينئذ من إنهاض الإمبراطورية العثمانية، وكانت تدفع لذلك دفعا نحو سوريا، وتميل به إلى الانسياق خلف مشروعات تركيا فى آسيا (حملة بغداد) أو شرق البحر المتوسط (حملة المورة وكريت)، ومشروعات فرنسا فى أفريقيا الشمالية (حملة الجزائر)، وإن كانت لم تمنعه من النظر فى جميع هذه المشروعات والانتفاع بها أوسع انتفاع، كما فعل باستغلال كريت فى سياسته البحرية حين أعطتها تركيا له، وانتهاز مشروع الجزائر لمحاولة الحصول على ما كان يحتاج إليه من مال فرنسا وسفنها حين عرضته عليه الحكومة الفرنسية، كذلك لم تمنعه من السعى للتحالف مع إنجلترا خوفا من اتساع نفوذ فرنسا فى أفريقيا الشمالية، ومن عرض التحالف على فرنسا ليؤثر بوساطته فى سياسة أوروبا ويبعث فيها الشقاق.

كان المصريون يعودون إلى صنعة السلاح بعد أن هجروها منذ أن اتصلت مصر بالإمبراطورية اليونانية والرومانية. وهى إمبراطوريات كانت تعتمد فى حروبها على المرتزقة من شعوبها الخشنة، ويجتمعون فى كتلة واحدة منتظمة ويلتقون فى ميادين القتال بالشعوب الأخرى فيشعرون بشخصيتهم ووحدتهم واختلافهم على غيرهم، وقد استتبع تكوين هذا الجيش قيام المرافق والمدارس والإدارات اللازمة لتغذيته، وكانت تستخدم هى أيضا أهل البلاد وتدريبهم وتوجههم الوجهة التى

تقتضيها الحياة الجديدة أى تنبعث نواة هذه الدولة الفتية بجوهرها المصرى، وأوضاعها الأهلية ومواردها الخاصة، وأفاد من هذه السياسة أيضا الاتصال المستمر بأبناء أوروبا هؤلاء الذين كانوا يعملون حينئذ كل شىء ويشرفون على كل أمر، ويمثلون الحضارة الجديدة والنفوذ السياسى فى أجل معانيها. فكان يلقى تجارهم وصناعهم وعلماءهم كل يوم، وكان يسمر فى ساعات فراغه مع طائفة ذكية منهم ويحاول أن يتعلم كل ما يستطيع أن يتعلمه من خيارهم ويتطور بذلك تطورا لم يفترقط فى السنين الأربعين التى قضاها فى الحكم. بيد أن أثر اتصاله هذا بالغرب لم يبلغ صميم نفسه، ولم ينل من معدنها البتة، وإنما ظل يعمل خارجها، ظل يعمل فى دائرة الوسائل التى كانت تتلمسها لبلوغ غاياتها الخاصة. ومن هنا يظهر ما تنفرد به سياسته من حزم، وما يبدو عليها أيضا من تناقض بين المظاهر الحديثة والنزاعات القديمة. فهو يقيم المجالس الاستشارية، ولكنه يغلب عليها إرادة الحكام وهو ينشىء المدارس ثم يغلقها فى غير تردُّد، حتى يرى تحقيقها للغايات التى قصد بها إليها، وهو يقيم المنشآت الزراعية والصناعية الحديثة، فى الوقت الذى يتمسك فيه بسياسة اقتصادية عتيقة.. والنزاعات القديمة تتغلغل لديه فى المظاهر الحديثة، وتكبح جماحها بقوة تنبثق بين شخصية سليمة لم يرتق إليها الشك أو يتطرق إليها التردد. وهى بعد شخصية حاكم عثمانى عريق من

نسيج الحكام الذين قادوا المسلمين إلى الانتصارات على الصليبية والمغولية، وأقاموا حكم المماليك وبنى عثمان، فهو مثلهم لا يرى من الحكم إلا الجانب العسكرى، ولا ينظر إلى الحياة المدنية إلا كوسيلة من وسائل الانتصارات فى ميادين القتال، فيسأل القناصل ما الذى لم يفعله لمصر، ألم يعطها جيشا وأسطولا ومدافع؟ ويقول لقنصل فرنسا إنه يريد أن يكون فى كل وقت على أتم استعداد عسكرى حتى لا ينساه المسلمون.

ويكتب لمديريه قائلا: إن رفاهة مصر ترجع لجيشها، ويستنكر تفكير أوروبا فى حرمانه من بلاد أخذها بحد سيفه.

٢ - ومن هذا العملاق بكل معانى الكلمة إلى (الموجة الغربية) هجومها الشرس وتوغلها باسم - الحضارة والتقدم بطبيعة الأمر - موجة العنصرية والخداع التى اصطدمت بإسماعيل المفترى عليه فأطاحت به (١٨٧٩) ومن بعده بقادة ثورة الجيش عام ١٨٨١ بدءا للاحتلال.

وما كان من زرع القناة - حين احتال ديليسبس على سعيد للشروع فيه - بالشىء الذى نؤمن به أوروبا نفسها إيمانا صادقا، ومع ذلك نالت إنجلترا سكة حديد السويس ثمنا لمساعدة عباس فى الاحتفاظ بحقوقه (كاملة) ونال ديليسبس قناة السويس مقابل ثنائه العاطر ووعوده السخية، ومضت القاهرة فى تنفيذ المشروعين بخطى سريعة

كانت تثير أهل البلاد ومعارضة الدول التى كانت لا تفيد من مثل هذه المشروعات فائدة، مباشرة.

وهكذا كان إسماعيل يجد خلف إرادته فى الحكم الحقيقى، حين ولى مصر، تيارا دوليا قويا، وروحا داخلية ظاهرة. ومن هنا اعتناقه السياسة التى كانت تنتهجها إنجلترا فى محاربة مشروع القناة من المناداة بوحشية السخرة التى كانت تلجأ إليها شركة القناة إلى إبراز الخطورة السياسية التى كان ينطوى عليها امتلاك هذه الشركة مساحات واسعة من الأراضى المصرية، إلى الإلحاح فى إنشاء قضاء منظم يضع علاقة الأجانب بحكومة البلاد ورعاياها فى حدود طبيعية، ويقفل الباب فى وجه الامتيازات التى كان ممثلو فرنسا ينالونها من حكامهم ثم كثرة الاعتداءات على الأجانب التى صحبت ارتقاءه العرش، وقد أثارت هذه السياسة فرنسا.

وكانت الظروف المالية ترجع إلى ما اضطر إلى أن يحتمله فى سبيل تسوية النزاع الخاص بمشروع القناة وترضى السلطان والتقرب من العواصم الغربية، ثم ما اختطه لنفسه من سياسة مالية أراد أن يتجنب بها ما انتهت إليه اتجاهات سعيد المالية من نتائج وخيمة. وكانت هذه السياسة تقوم على استثمار مرافق البلاد بإنشاء شركة قوية كالتى كانت تقوم فى أوروبا لذلك الوقت، يعهد إليها بهذا الاستثمار، ويشترك هو ورجاله فى رأسمالها ويخضعها لقضائه،

وكان يقصد من ذلك إلى تنسيق الاستقلال الاقتصادى، والإسراع فيه وتفادى الضغط الأجنبى من طريقه، ولكنه كان يعرض الخزانة العامة. وكانت ما زالت منذ أيام المماليك المتأخرين لا تفترق عن مال الولاة، إلى أخطار الاستغلال التجارى، دون أن يستطيع بعد ذلك الاستغناء عن رءوس الأموال الأجنبية وخبرة أصحابها، وما يصحب ذلك من تدخل قناصل الدول بنفوذهم السياسى العريض، وقد أخفقت أغلب هذه الشركات.

الموجة الغربية إذن هى التى ضربت مشروع نهضة مصر - منذ تولى محمد على إلى الاحتلال البريطانى (١٨٨٢) بعد أن استطاعت الطاقة المصرية الذاتية (١٨٠٥) الكامنة أن تفرد أجنحتها بفضل ريادة محمد على، وحروب إبراهيم إلى أن اتجه إسماعيل نحو تأسيس طبقة رأسمالية مصرية بكل معانى الكلمة وعندئذ أطاحت به أوروبا الديمقراطية المتحضرة إذ رأت أن يتسلم خديو مصر فرمان الباب العالى بإقالته عام ١٨٧٩ على أيدى صديقه ديليسبس صاحب عملية قناة السويس.

أعراض المراهقة

وبرغم كل شىء، برغم الانكسار والاحتلال وإجهاض محاولة إقامة دولة حديثة واقتصاد وطنى ونهضة شاملة، لم تتوقف مصر منذ على بك الكبير، ومحمد على خاصة، ولكنه كان تحركا يتسم بشبكة هائلة

من التناقضات الداخلية، كانت وما زالت إلى حد ما تمثل التحدى الحقيقى لنهضة مصر الوطنية الحضارية - رسالة شعبنا دوما.

١ - رأينا كيف يرجع ضعف مقاومتنا فى المحيط السياسى وقلة إنتاجنا فى ميدانى الاقتصاد والفكر قبل كل شىء إلى عدم انبثاق تلك المقاومة وهذا الإنتاج من حياة اجتماعية زاخرة تجمع بين طبقات المجتمع جميعا فى عزمة واحدة فهما لا يعدوان أن يكونا نفرة الطاقة العليا من مجتمع قديم يلج جوا جديدا ويحاول الذود عن نفسه والملاءمة بين شئونه ومقتضيات هذا الجو، وهذه الملاءمة عسيرة غاية العسر لأنها تقتضى خلق بعض الظواهر الاجتماعية خلقا، وتعجل نضوج البعض الآخر، وتنسيق أطوار هذه الظواهر جميعا تنسيقا شاملا، أى تحقيق ما حققه المجتمع الغربى فى قرون من السير الطبيعى الهادىء فى دفعة واحدة وبتدبير مقصود.

ونحن نحاول هذه المحاولات ونعالج مسائلنا على وجه العموم بخبرة من لدينا من عناصر فنية نالت نصيبا من التربية الغربية، دون أن يكون لها حظ كبير من الثقافة الشرقية الصحيحة، ويدفع بها التيار الغربى الذى يحيط بنا من أقطارنا جميعا إلى أجهزة الحكم، دون العناصر التى كان يحق للمجتمع بتكوينه الزراعى - الدينى أن يرسلها إليها لو لم يكن هذا التيار الغربى بمقتضياته الاجتماعية ونفوذه السياسى، وهذه الخبرة هى النتاج المباشر للثقافة الجامعية

التى نالتها هذه العناصر فى الغرب، دون أن تكون بينها وبين الحياة العملية التى أنتجتها أو حياة البلاد الحقيقية سبب كبير.

وهى تخضع لوضعها هذا حين تفكر وحين تعمل وحين تعالج ظواهر لم تظهر أو ظهرت ولكنها لم تنضج، كما نضجت مثيلاتها فى الغرب. ولم تتخذ على كل حال الأوضاع نفسها التى اتخذتها هناك، وتفعل ذلك بالأساليب التى ابتدعها هذا الغرب تحت ضغط تلك الأوضاع.

وهكذا لم يهتم الذين وضعوا دستورنا يوم وضعوه بدراسة ماضينا الدستورى أو حاضرنا الاجتماعى كما اهتموا بدراسة الدساتير الأجنبية، ولم يعن الذين وضعوا نظمنا الحكومية بماضى هذه النظم لدينا كما عنوا بنقل القوانين الفرنسية، وما زال الذين يضعون تشريعنا الاجتماعى والاقتصادى ينتهجون مثل هذا المنهج إلى حد بعيد.

- هناك إذن مجتمع مصرى جديد ترتفع نشأته إلى مطلع القرن التاسع عشر، وترجع أصوله فى مجموعها إلى تراخى الصلة بين السلطنة العثمانية ومصر، وتحلل النظم المملوكية، ثم النزعة الانفصالية التى بدأت تحت مشايخ البلد وبلغت أشدها بمحمد على، ثم انتهت إلى غايتها عند انفجار الحرب العالمية الأولى، إذ تضافرت هذه العوامل فى تكوين أسرة مالكة جديدة وحكومة محلية ومصالح وطنية، وأتاحت لأبناء البلاد الغلبة على ما كان يختلط بهم إلى ذلك الحين من عناصر أخرى.

وهذا المجتمع يرث عن ماضيه فكره العربى وضميره الإسلامى، فى حالة ثقيلة من الفساد الذى دب إليها جميعا تحت الدولة التركية، فيخضع لتأثير هذه الحضارة الغربية البراقة، التى تكونت بين القرنين الخامس عشر والتاسع عشر، أى فى أثناء نكبته العثمانية بالذات، بفضل الحروب الصليبية، التى ردت الغرب إلى حياة البحر المتوسط، وأعادت الصلة بينه وبين ماضيه الإغريقى - الرومانى وأشركته فى ثمار الحضارة الإسلامية، واكتشاف الأمريكتين، الذى وسع آفاقه توسيعا لا عهد له به من قبل، ثم لعلوم الحديثة وما مكنته منه فى طريق استثمار هذين العاملين.

٣ - هذا التأثير الغربى يتخذ إلى المجتمع المصرى الجديد طريق التغلغل الاقتصادى، فيقيد منابع ثروته بإنتاجه والنفوذ السياسى إذ يبعد هذا التغلغل ويدفع بحكومات القائمين به إلى الضغط على الحكم، ثم الاستئثار به والغزو الثقافى، إذ يشعر أبناء البلاد بمقتضيات الحياة الجديدة التى يتجهون إليها فيقبلون على التعليم الحديث - ويشعر الغرب بالحاجة إلى إيلافهم، فينشر بينهم ما يريده من هذا التعليم، وتنشأ بذلك طبقة من المفكرين المحدثين، ترفعها مقتضيات الحياة الجديدة إلى الصدارة، ثم تنتشر الصحف - وتعم الإذاعة فتلحق البلاد بدائرة الرأى العام العالمى، وهو يبدأ فى هذه الميادين جميعا كتيار يهب من الغرب، ثم ينقلب جذوة تتقد من الداخل.

فقر الدم.. عقد النقص..

أين نحن من العالم ؟ سؤال عام ١٩٥٠ ما زال حيا يرزق فى عصر العولمة:

المقارنة الزائفة أولاً:

والمقارنة بين نظم الحكم فى مصر قبل الفتح العربى وبعده وبين الحكم فى المدن اليونانية والجمهورية الرومانية أمر لا يستقيم، كما لا يستقيم فى تاريخ مصر بين العصر الفرعونى ونهاية القرن التاسع عشر بمنظار القومية التى لم تعرفها البشرية إلا بعد ذلك بقرون. فقد كانت النظم المصرية فى الوقت الذى ينصب فيه هؤلاء المؤرخون المقارنة بينها وبين النظم الإغريقية والرومانية نظما عريقة لدولة كبيرة استقرت دعائمها فى بلد زراعى كثير السكان، وكانت لذلك نظم يتركز فيها السلطان ويتسع الاختصاص وتبعد المسافات بين الحكام والمحكومين، فى حين كانت نظما اليونانية والرومانية نظما ناشئة لمدن صغيرة تزاول التجارة فى الغالب ولا يكاد أهلها يجتمعون فى وحدة سياسية حقيقية.

ونحن إذا بدأنا تاريخ حياة أوروبا بقيام روما فى القرن الثامن ق.م واتخذنا الثورة الفرنسية فى نهاية القرن الثامن عشر تاريخا لعودة الحريات السياسية إلى أوروبا، وذكرنا ما بيننا من عدم مزاولة عامة روما الحقوق السياسية حقيقة، إلا بين سنتى ٥١٠ و٨٧ ق.م

تكون أوروبا قد تمتعت بالحريات السياسية زهاء خمسة قرون من خمسة وعشرين قرنا، ويكون الدين يدعون النظم التى قامت فيها أثناء تلك القرون الخمسة بالنظم الغربية ويعدونها الأصل فى حياة أوروبا السياسية ويهملون العشرين قرنا الأخرى، ويدعون ما قام فى الشرق من نظم شبيهة بالنظم التى قامت فى أوروبا فى هذه القرون العشرين بالنظم الشرقية، قوم متعنتون. قوم جهلة الجهل الذى يسوق الكثير إلى طريق التبعية.

٢ - ما العمل، إذن؟ من أين نبدأ؟

ونحن ننتهى من هذه النظرة السريعة لأوضاعنا الحاضرة، إلى ما وصلنا إليه بالعرض لأهم أحداث تاريخنا من أن الأمر فيما عليه حالتنا الراهنة هو قبل كل شىء أمر فقر الدم هذا الذى أصاب أطراف مصر جميعا بين القرنين الخامس عشر والتاسع عشر: فحد من نشاطها الاقتصادى، وهبط بحياتها الاجتماعية إلى الحضيض، ودفع بفكرها إلى الجمود، أمر مجتمع يخرج من أقصى ما يستطيع أن يتردى فيه شعب من دمار إلى أحدث ما انتهت إليه البشرية المتمدنة، ويحاول أن يساير هذه الحياة الجديدة دون تقاليد أو مقومات حقيقية، وهو يتعثر لذلك بين هشيم الماضى وعقبات الحاضر ولا يريد أن ينظر إلى ظروفه الخاصة النظرة المجردة التى تستحقها، ويعالجها بالحزم الذى تقتضيه ومعالجة مثل هذه الحالة لا تستطيع أن تستقيم

إلا بتنقية هذا الدم وتغذيته والإكثار منه، وهو عمل يقتضى مجهودا كبيرا يشترك فيه جميع أفراد المجتمع، لأنه يتصل بنشاط كل منهم.

سطور قلائل من الكتاب الأوحد تركة عبد الفتاح صبحى وحيدة إلى شعب مصر، قبل رحيله أو لعله استشهاده المبكر.

رجل ينتمى إلى الجيل الذى تشبع بالفكر الغربى فى الأعماق، ومع ذلك نراه فى التوجه العام يتجاوب فى الأعماق مع محاور الفكر والعمل الوطنى بل والتقدمية المصرية، ويضيف إليها البعد الحضارى، وذلك بفضل تعمقه فى دراسة الصياغة التاريخية لمصر عبر القرون، وهو الأمر الذى ينقصنا فى كثير من الأحيان، ربما سعيا وراء بريق النشر المتعجل والتلاعب بالمفاهيم اللامعة وأسماء الشخصيات المرموقة التى تؤكد أننا دخلنا فى الجو أو لعل الجو الذى دخلنا.

من المهم أن ندرك كيف أن التعمق فى دراسة الفكر والثقافة والعلم من الغرب يتفق مع التمسك بكل معانى العزة الوطنية والإصرار على استقلالية القرار والاعتزاز بالخصوصية القومية والثقافية والحضارية لمصر. وهذا فى الوقت الذى يرفع فيه التحديث المستغرب والعولمة التابعة شعارًا « أنه لا مفر من إعادة صياغة شخصيتنا المصرية لكى نصبح مقبولين فى المجتمع الدولى » - أى لكى تصبح مصر تابعة طيعة لهيمنة المركز الواحد.

حان الوقت بعد طول غياب أو تغيب، لكى تدخل معانى الكتاب

الرائد فى أصول المسألة المصرية بيوت المصريين عقولهم وقلوبهم، عندئذ سوف يتساءل شباب مصر فى ذهول وإصرار: أهكذا كنا؟ ماذا حدث؟ ثم كيف يمكن مواصلة المسيرة بعد أن نفيق؟

قال صبحى:

وبعد هذا يتساءل المخرجون عن أسباب انصراف جمهور الشباب إلى الأساطير والملاحم الأجنبية.. هلا يفكرون فى مسيرة مصر؟

إبراهيم عامر
الأرض والفلاح فى تاريخ مصر

الحديث عن واقعنا القومى المتميز يحتل مكانة بارزة فى كل مكان. ولكن عدد الدراسات العلمية لهذا الواقع القومى ما زال ضئيلا إلى حد يثير الدهشة. ومن هنا كان اهتمام الرأى العام المثقف فى مصر والبلاد العربية بكتاب «الأرض والفلاح - المسألة الزراعية فى مصر» لزميلنا الكاتب والصحفى الأستاذ إبراهيم عامر، وهو الكتاب الذى نتعرض لأهم نقاطه لاعتقادنا أنه بحث علمى جدير بالدراسة والمناقشة.

«الفلاحون فى مصر يبلغون نحو ١٥ مليون نسمة، وهم يكتسبون عيشهم - فى الغالب الأعم - من زراعة نحو ستة ملايين فدان من الأراضى الزراعية، ويقيمون فى نحو أربعة آلاف قرية و٢٠ ألف عزبة، يقدر الدخل القومى المستمد من الزراعة أى من قوة عمل الفلاحين، بنحو ١٢٠٠ مليون جنيه، وتمثل الصادرات الزراعية نسبة نحو ٦٩٪ من مجموع الصادرات. وتشتغل معظم الصناعات المصرية بتحويل أوتصنيع مواد أولية زراعية، وتستخدم تلك المصانع نسبة نحو ٦٤٪ من مجموع العمال الصناعيين فى مصر».

من هنا كان جوهر المسألة الوطنية فى مصر هو مسألة الفلاحين: ومن هنا كانت دراسة المسألة الزراعية - أى دراسة علاقة الفلاح بالأراضى التى يفلحها - واجبا وطنيا على كل مصرى وكل مصرية.

يتناول الأستاذ إبراهيم عامر تاريخ المسألة الزراعية منذ عهد الفراعنة حتى الإصلاح الزراعى عام ١٩٥٢، ويركز بحثه على النقط التالية:

(أ) تأثير المسألة الزراعية على نظام الحكم والبنيان الاجتماعى فى مصر منذ أقدم العصور.

(ب) طبيعة انظام الاقطاعى الشرقى، وتأكيد الطابع الرأسمالى للاقتصاد الزر عى المصرى قبى ١٩٥٢.

(جـ) الإصلاح الزراعى: أسبابه، طبيعته، نتائجه.

فى عهد الفراعنة:

يتساءل المؤلف: كيف كان فرعون مصر هو الإله، وهو الحاكم المستبد بأمره وهو مصدر كل تشريع؟ ويجد الجواب على هذا السؤال فى الجغرافيا الاقتصادية لبلادنا: كانت الحكومة هى التى تقوم بشق قنوات الرى وبناء السدود لحماية الأرض من الفيضان، وضبط مياه النيل وتخزينها وتوزيعها. فقد كان هذا النظام.. لا يزال.. شرطا حيويا لضمان معيشة المصريين.

« وإذا كانت عمليات الرى والصرف فى مصر تحتاج إلى جزء كبير من قوة العمل التى لا تستخدم فعلا فى الزراعة، أو التى لا يمكن

استخدامها بطريقة مفيدة فى الزراعة، وإذا كان من غير المستطاع القيام بتلك المهمة (المائية) بشكل مفيد على أساس محلى بحت، فقد كانت الحكومة المركزية تحرص دائما على وحدة البلاد الإدارية والسياسية، لتنفيذ مشروعات الرى العامة، كما كانت تمارس سلطة فعلية إيجابية، وتسيطر على قوة عمل كبيرة ولقد كان فرعون بوصفه الإله، ويحكم سيطرته الفعلية على موارد الرى والقوى العاملة، هو المالك الوحيد لأرض مصر. والمعتقد إلى حد بعيد أن بعض المزارع الملكية كان يدار بواسطة موظفين يعينهم الملك ويحصلون على رواتب ثابتة، وأن بقية المزارع كانت تعطى للفلاحين لزراعتها والانتفاع بها مقابل التزامات معينة. ومن ثم، فقد كانت هناك علاقة وثيقة بين حيازة الأرض (فى أيدى الموظفين وخدام الروح والكهنة) وبين تأدية الخدمات للدولة».

كان هذا إذن هو السبب فى ظهور حكومة مركزية واحدة فى وادى النيل منذ قديم الزمن، وفى تماسك شعبنا وشعوره بالوحدة منذ أقدم العصور. ولكن عناصر التفرقة بدأت تعمل منذ أواخر عهد الأسرة الرابعة:

« أخذ فرعون - بسبب ضعف مالية الدولة نتيجة لتكاليف بناء الأهرامات يدفع جزءا من مرتبات الموظفين عينًا (طعاما وكساء وشرابا. الخ). ويدفع جزءا من هذه المرتبات بعطايا من الأرض.

والاعتقاد السائد أن تلك الأراضى كانت توريث. وهناك من يعتقد أن هذه الأراضى كانت تباع كذلك. وفى نهاية الأسرة السادسة، أصبح حاكم - الإقليم - عادة - رئيس الكهنة فى المعبد الرئيسى، بالإقليم، وأصبح الحاكم الذى ورث أعلى مناصب المدينة (الإدارة والقضايا) وأعلى المناصب الكهنوتية فى إقليمه، مع مساحة لا بأس بها من الأرض، فى مكانة تكفل له استغلال أى ضعف يبدو فى الحكومة المركزية لحساب نفسه. وكان من نتيجة ذلك أن قامت سلطة إقليمية، ممثلة فى الكهنة وكبار الموظفين، ومعتمدة اقتصاديا على أراضى الأوقاف، إلى جانب السلطة المركزية، الأمر الذى ساعد على انهيار الدولة القديمة».

وزادت حركة توزيع الأرض المملوكة لفرعون بعد حروب (الهكسوس): «عندما قامت حركة التحرر ضد (الهكسوس)، ونجحت فى طردهم من البلاد قام معها جيش قوى من المحاربين الذين منحوا الأرض والعبيد والذهب. وقد أنشأت الأسرة الثامنة عشرة جيشا من المحاربين المحترفين للدفاع عن البلاد، وقد أصبح قادة الجيش يحصلون على الأراضى الزراعية».

وكانت هذه قصة أرض مصر خلال أربعين قرنا من تاريخنا القومى.

النظام الإقطاعى:

واستمر الحال على هذا النحو فى الفترة ما بين نهاية مصر الفرعونية حتى عصر محمد على: «وقد تجنب العرب، عندما دخلوا

مصر، التدخل فى الأحوال العامة والزراعة، وسمحوا للمزارعين بأن يظلوا فى أراضيهم، بل وشجعوهم على زيادة نشاطهم وتحدد معالم مصر الإقطاعية على النحو التالى: كانت الدولة بوصفها المالك الوحيد للأرض - تقوم باستغلال المساحة الكبرى من الأراضى استغلالا مباشرًا وتقوم بتوزيع بعض المساحات على بعض الأفراد للانتفاع بها مقابل التزامات معينة، ولم يكن المنتفعون بالأرض سوى حائزين لها، منتفعين منها. وكانت الأغلبية الساحقة من الفلاحين بدون أرض، ولذلك كانوا يعملون فى مزارع الدولة، أو مزارع كبار المنتفعين مقابل الحصول على الضروريات المعيشية، كما كانوا يعملون سخرة فى أعمال الدولة.

ثم ينتقل الأستاذ إبراهيم عامر بعد ذلك إلى فكرته القائلة بوجود فارق كبير بين النظام الإقطاعى فى الغرب، وفى الشرق، فالنظام الإقطاعى فى الغرب يثير اختلافات عدة: «يستخدم بعض المؤرخين هذا التعبير ليصف به نظاما لحيازة الأرض والانتفاع بها مقابل الخدمة العسكرية، والبعض يستخدمه لوصف نظام استغلال قائم على السخرة، والبعض يستخدمه لوصف نظام يقوم على شكل من أشكال العلاقة الشخصية بين مالك الأرض وزارعها، والبعض يستخدمه لوصف نظام سياسى يسيطر فيه كبار ملاك الأرض

على أجهزة الدولة، والبعض يقول: إن فكرة الإقطاعية كانت منذ نشأتها مجرد فكرة الغرض منها هو وصف نوع عام من أجهزة الحكم، وليس نوعا محددا من الحكومة، والبعض يصر على أن الإقطاعية تعبير تقنى (تكتيكى) يمكن استخدامه فقط لوصف أجهزة الحكم الأوروبية الغربية فى العصور الوسطى.. (ولكن) هنا مظاهر عامة للنظام - الإقطاعى:

١ - سيادة التوزيع والتبادل الطبيعى للمنتجات..

٢ - تبعية الفلاح تبعية شخصية للمالك..

٣ - حيازة المنتج لوسائل الإنتاج بشكل عام، والأرض بصفة خاصة..

٤ - انخفاض المستوى التكتيكى فى الزراعة وركود التطور فيها».

أما النظام الإقطاعى فى الشرق فقد أمتاز بسمات مميزة خاصة:

«كانت الأراضى الزراعية فى مصر - حتى أواخر القرن الثامن عشر - مملوكة ملكية تامة للدولة، والسبب الحقيقى لانعدام ظاهرة الملكية الفردية للأرض فى مصر حينذاك هو السبب نفسه لوجود تلك الظاهرة فى المنطقة الممتدة تقريبا من الصحراء الكبرى غربا إلى الهضبة الآسيوية الصينية الوسطى شرقا. وهذا السبب هو أن الزراعة فى مصر كانت تعتمد على أعمال لرى الصناعى واسعة النطاق، وقد أدى ذلك إلى الاعتماد على إنتاج معين من المجتمع والحكومة فى

مصر القديمة، وفى آسيا الغربية، والهند والصين، وذلك لأن الوصول إلى مستوى مرتفع وممتاز من الإنتاجية الزراعية للأراضى التى تعتمد على الرى الصناعى قد اقتضى قيام الدولة بتنفيذ مشاريع الرى، مثل حفر الآبار وشق الترع والقنوات، كما اقتضاها أن تقوم بأعمال ضبط مياه الأنهار وحماية الزراعات من الفيضانات. ومن ثم، كان تحقيق ذلك يقتضى وجود سيطرة مركزية للدولة على الأراضى الزراعية، لا تتأتى إلا بأن تمتلك الدولة تلك الأراضى، كما اقتضى تحقيق وجود سيطرة مركزية على السكان لتعبئتهم للقيام بالأعمال المطلوبة، ووجود سيطرة مركزية على مياه الرى لتوزيعها، الأمر الذى أدى إلى أن أصبحت الزراعة من مهام الحاكم».

سلطان الدولة:

ويدلل المؤلف على صحة نظريته بأقوال كارل ماركس فى يونيو ١٨٥٣ فى رسالته إلى صديقه إنجاز: «إن عدم وجود ملكية فردية للأرض هو - حقًا - مفتاح الشرق كله. وهنا يوجد تاريخ الشرق السياسى والدينى».

ولكن كيف حدث أن الشرقيين لم يصلوا إلى الملكية الفردية للأرض، حتى ولا فى شكلها الإقطاعى؟

«إننى أعتقد أن السبب الرئيس لذلك يرجع إلى المناخ وارتباطه بطبيعة التربة.. إننا نجد فى هذه المنطقة أن الرى الصناعى هو الشرط

الأول للزراعة. وهو أمر لا تقوم به إلا الجماعات القروية أو الأقاليم، أو الحكومات المركزية».

«وليس لأية حكومة شرقية إلا ثلاث مصالح: الأولى للمالية، والثانية للحرب، والثالثة للأشغال العامة، ضرورة استمرار الإنتاج». كانت نتائج ذلك خطيرة حقا من الناحيتين السياسية والاجتماعية: «إن نظام الري قد اقتضى دائما وجود سلطة مركزية تتولى الإدارة الزراعية وتتولى في الوقت ذاته المهمات العسكرية. وقد نتج عن ذلك نوع السلطة المركزية، التي تعتمد على الموظفين لا على الحكام المستقلين. وقد ظلت مصر دائما - وحتى في عهد حكام الصعيد في الدولة الفرعونية وفي عهد المماليك في الدولة السلطانية - وحدة سياسية، ولم تعرف الانقسام الذي عرفته دول أوروبا في مرحلتها الإقطاعية مثل ألمانيا وإيطاليا وفرنسا وإنجلترا وغيرها».

هكذا كان الحكم يفهم دائما على أنه تَحَكُّم في جميع عصور تاريخنا القومي، في دولتنا الموحدة الخاضعة لإدارة مركزية واحدة.

كيف نشأت الرأسمالية:

كيف إذن - ومتى - نشأت الرأسمالية في مصر؟

وعند المؤلف أنها نشأت في الفترة ما بين قانون ١٦ سبتمبر ١٧٩٨، ولائحة الأطيان الأولى عام ١٨٤٦:

«وبهذه المناسبة نرى أنه من الضروري أن ننوه هنا بأن الذين

يقولون: إن الرأسمالية قد نشأت فى مصر بسبب فرضها من الخارج فقط (الحملة الفرنسية ثم محمد على) لم يدرسوا - فى الواقع - العوامل الداخلية دراسة كافية. فلقد كانت أسباب نشأة الرأسمالية كامنة فى مصر قبل التدخل الخارجى، وكانت تلك الأسباب تتخذ شكل تطور الاقتصاد المصرى من اقتصاد طبيعى إلى اقتصاد للسوق، وتتخذ شكل نمو المدن الصناعية والتجارية المصرية وحاجتها إلى الحاصلات الزراعية، كما أنه من الخطأ قياس تلك الأسباب بالمقاييس الاجتماعية دون المقاييس الاقتصادية، واستبعاد العوامل الداخلية بحجة أن (البورجوازية) المحلية لم تكن ترغب فى القيام بثورتها ضد (الإقطاعية)، فإن تلك الحجة تضع العربة أمام الحصان، لأن الأصل فى التطور هو مدى نمو العوامل الاقتصادية الجديدة، وليس مدى رغبة هذه الطبقة أو تلك فى القيام بالثورة».

وجاءت لائحة الأطيان الأولى فى عهد عباس عام ١٨٤٦ تمنح مستغلى الأرض حق التصرف فيها بالرهن أو التنازل للغير. وفى عام ١٨٥٨ صدرت اللائحة السعيدية، التى منحت مستغلى الأرض حق تأجيرها ورهنها، وبيع حقه فى الاستغلال للغير، وتوريث الأرض، وتعويض المنتفع فى حال نزع الأرض منه. وهكذا انتصرت الرأسمالية فى ريف مصر، ولكنها انتصرت على حساب الفلاح.

« أدت سياسة القروض وسياسة الإسراف فى عهد إسماعيل، إلى سوء حالة الفلاحين، وإثقالهم بالضرائب والالتزامات. ولقد كان الفلاح فى عهد إسماعيل لا يملك عمامة، ولا يملك سوى جلباب واحد. وحتى عندما كان يملك العمامة أو أكثر من جلباب، فإنه كان يخفى تلك الحقيقة حتى لا يطارده الصرفون. وكانت النساء يبعن ملابسهن وحليهن الفضية والذهبية. وكان الفلاحون يساقون بالكرباج للعمل فى مزارع الخديو وفى مزارع الباشوات المحظوظين.. ومعنى هذا أن الملكية الفردية للأرض لم تُفِدْ الفلاحين بشىء، بل ولقد كان شكل تقسيم الأرض - فى حد ذاته - هو الشكل الأول من أشكال الاستغلال الاحتكارية للفلاحين المحرومين من الأرض التى يزرعونها».

وجاء الاحتلال البريطانى ليؤكد الطابع الرأسمالى لاقتصادنا الزراعى، وذلك بتعميمه زراعة القطن.

نحو الإصلاح الزراعى:

لا يتسع المجال هنا لتتبع تحليل الأستاذ إبراهيم عامر للقوى الاجتماعية فى الريف المصرى - الملاك المتقاعسون، المزارعون الأغنياء، المزارعون المتوسطون، المزارعون الفقراء، المعدمون والعمال الزراعيون - ولكن لابد من الإشارة إلى رأيه فى دور الطبقة المتوسطة فى حياتنا السياسية.

« يكفل المزارعون المتوسطون فى مصر لأولادهم (وأحيانا لبناتهم) استكمال تعليمهم فى الجامعة أو المعاهد العليا، حتى يستطيعوا بعد

ذلك الالتحاق بوظائف المعلمين والمهندسين أو المحامين، أو ليصبحوا ضباطا فى القوات المسلحة. ومع ذلك فإن المزارع المتوسط يشعر أكثر من غيره بوطأة استغلال المالك للعقار والرأسمالى المصرفى، ويحس بالحاجة إلى أن يتمتع بمزيد من الحقوق السياسية وهو لهذا كثيرا ما ينضم إلى الحركة القومية ويعتبر عمادها، كما يؤيد بعض الأشكال الديموقراطية المحدودة».

وبدأ الصراع من أجل الأرض:

«لقد عرفت مصر معنى مقاومة الاستغلال والاستبداد منذ عهد محمد على واتخذت تلك المقاومة شكل ترك الفلاحين القرى، وإهمال حصد المحاصيل، بل وهجر البلاد، ومنذ ذلك الحين، اتخذ الفلاحون أساليب مختلفة للمقاومة، كان من أهمها الامتناع عن دفع الإيجارات والتحايل على إجراءات الحجز. كما ظهر أسلوب عنيف من أساليب المقاومة أحيانا فى شكل حرق المزروعات قبل حصدها أو بعده. ولكن نضال الفلاحين لم يكن قاصرا على النضال الاقتصادى والاجتماعى، وإنما ساهموا مساهمة فعالة فى ثورة مصر القومية ضد الاستعمار، وفى حركات المطالبة بالحياة الديموقراطية الدستورية فى البلاد. ومن أبرز الأمثلة على ذلك ما قام به الفلاحون فى الدلتا والصعيد من نضال وطنى شديد خلال ثورة ١٩١٩، وخلال المعارك القومية والديموقراطية التى دارت فى البلاد فى سنوات

حكم زيور (١٩٢٥)، وحكم صدقى (١٩٣٠/١٩٣٣)، ومرحلة النضال ضد الاحتلال فى منطقة القنال (١٩٥١). ومنذ عهد إسماعيل تولت الطبقة الوسطى والقوى الرأسمالية الناشئة اقتراح الإصلاحات لمواجهة سخط الفلاحين».

ففى أوائل القرن العشرين حدد محمد فريد باسم الحزب الوطنى برنامجه الزراعى

١ - تخفيض الضرائب على الأراضى الزراعية.

٢ - إنشاء نقابات المزارعين (أى أصحاب المزارع، دون العمال الزراعيين).

٣ - الدفاع عن المستأجر ضد المربين.

٤ - إنشاء الجمعيات التعاونية الزراعية.

وبعد ثورة ١٩١٩ طهرت مطالب جديدة أهمها:

١ - إلغاء ديون الفلاحين الذين يملكون أقل من ٣٠ فدانا.

٢ - إعفاء الفلاحين الذين يملكون أقل من عشرة فدادين من الضرائب.

٣ - إنشاء مصارف تعاونية لصغار الفلاحين.

أى إن توزيع ملكية الأرض - وهى مسألة المسائل - لم تمس، إلى أن جاءت الموجة الثانية من حركتنا خلال الحرب العالمية الثانية، فظهرت فكرة تحديد الملكية الزراعية: تبناها فى الداخل

محمد خطاب عام ١٩٤٤، و« لجنة العمال للتحرر الوطنى » عام ١٩٤٦ ثم ٧٦ مرشحا لانتخابات ١٩٤٩ والنائب إبراهيم شكرى عام ١٩٥٠، ومن بعده على الشيشينى. وتوالت التقارير الرسمية الأمريكية تطالب بإصلاح زراعى محدود فى الدول المتخلفة - فى آسيا وأفريقيا - لدرء الخطر الشيوعى وخاصة بعد انتصار ثورة الصين الشعبية.

★ ★ ★

ورأى الجناح المصرى للرأسمالية المصرية أنه من المصلحة نقل رءوس الأموال من القطاع الزراعى إلى القطاع الصناعى، فصدر قانون الإصلاح الزراعى يوم ٩ سبتمبر ١٩٥٢، وقوبل بمعارضة شديدة من قبل كبار الملاك، وحقق بعض النتائج: فقد ارتفعت نسبة الفلاحين الذين يملكون أقل من خمسة أفدنة من ٣٥.٥٪ قبل ١٩٥٢ إلى ٤٩.٦٪. وبعد الإصلاح. انخفضت نسبة الذين يملكون أكثر من ٥٠ فدانا من ٣٤.٢٪ إلى ٢٠.٤٪ وظلت الطبقة الوسطى (من ٥ إلى ٥٠ فدانا) هى هى، أى ٣٠.٣٪، ولكن رأس المال النقدى المتحرر من الأراضى الزراعية قد بلغ سنة ١٩٥٥ نحو ٤٥ مليون جنيه، لم يتجه إلى الصناعة إلا بقدر ضئيل: ستة ملايين جنيه فقط، مما حتم على الدولة التدخل فى مجال التصنيع عن طريق « المؤسسة الاقتصادية ».

ماذا عن المستقبل:

سوف تتجه مصر شيئا فشيئا إلى تمليك الفلاحين مزيدا من الأرض التى يفلحونها، ثم إلى الزراعة التعاونية فى مجتمعنا الصناعى الجديد.

كانت هذه هى الأفكار التى خلصت بها من مطالعة هذا الكتاب الخطير، وعلى لسانى عشرات من الأسئلة، والاعتراضات فلتكن هذه السطور إذن مجرد استعراض ومجرد بداية.

شهدى عطية الشافعى
فى أصول المسيرة الطويلة..

يحتفل قلب مصر ووجدانها وعقلها وفكرها وإرادتها بالذكرى الثلاثين لاستشهاد شهدى عطية الشافعى، الذى كان للحركة الوطنية والتقدمية جمعاء الرائد والأستاذ والمعلم، والوجه المضىء، جامع الشمل، موحد الصفوف، المساعد الأول والأقوى فى بناء الجبهة الوطنية المتحدة منذ فجر الأربعينات حتى يوم رحيله الدامى. -

الآثار المكتوبة - أو على الأقل المنشورة بشكل مبتور جراء الرقابة السياسية آنذاك - قليلة، وإن كانت بالغة الأثر تاريخيًا فى مسار مصر المعاصرة. الأوراق المتناثرة نادرة. أما الذكريات، ذكريات جيل الأربعينات والخمسينات وحتى مطلع الستينات، فهى عارمة تكاد تحاصر، تكاد تخترق حصار الحنين المأساوى لرجل حفر أنيابه فى قلوب كل من قاده وعلَّمه، فى طريق التحرر والديمقراطية والتقدم. وعلى رغم هذا، فقد شاهدنا فى العديد من الأحيان، وبشكل متصل متعاقب يزداد بين الحين والحين أهمية، جماعات واسعة من الأجيال الشابة تلتف حول ذكراه وفكره، تتساءل: أين هو؟ كيف

استطاع أن يؤثر ويوجه بهذا العمق وهذه الأصالة؟ ثم: ما العمل؟ الرجل رائد ولايزال. وفكره موجه ولايزال. ومسيرته مثلاً أعلى ولاتزل، على رغم الظلمات، والندرة، والغياب. وكأنه بحق رائد الجيل المغيب الذى لم يغب. وكأنه حقا الوجه المشرق للإشراقة التى لم تتحقق، وإنما تناثرت بذورها هنا وهناك فأحيت زهورًا متفرقة تمثل بحق إيجابية مرحلة ١٩٤٠ - ١٩٧٣ على أرفع مستوى وأنصع صورة.

فكيف يمكن أن يكون إذن المدخل إلى إدراك هذا الأثر الهائل، لحياة ومسيرة واستشهاد هز أرجاء مصر والعالم العربى والعالم الاشتراكى والرأى العام العالمى؟

نقطة البداية، وهى الركيزة لكل ما أنجزه شهدى رائدًا ومعلمًا وقائدًا، ألا وهى حب الوطن، نقطة البداية فى عودته من بعثة إنجلترا بجامعة اكسترا عام ١٩٣٩ - ١٩٤٠ على آخر مركب أقلته إلى مصر، بعد إعلان الحرب، بغية ألا يفارق شعبه فيما استشعر أنه سوف يكون موعدًا مع القدر، حركة تحررية ثورية تطيح بكابوس الاستعمار البريطانى المسلح، والرجعية المتآمرة معه، فى طريق إقامة نظام وطنى ديمقراطى يفتح الطريق أمام الثورة الاجتماعية صوب الاشتراكية.

حب الوطن الذى وجه خطاه مع صفوة من أنبغ طلائع شباب مصر المثقف والعامل فى مطلع الأربعينات إلى إدراك أنه لابد من

تعبئة هذه الصفوة، انطلاقًا من حب الوطن، بهدف تكوين كوادر مصر الغد في الوقت الذي لم تكن فيه هناك مدارس في الأحزاب القائمة، والذي لم تسع فيه المؤسسات الحكومية والرسمية المزدهرة آنذاك، حول جامعة فؤاد الأول وبوتقة الجمعيات العلمية المنتعشة حولها إلى هذا المنحى. من هنا كانت فكرة تأسيس « دار الأبحاث العلمية » التي انطلقت منذ ١٩٤٢ - ١٩٤٣ بقيادته، وأصبحت في سنوات قلائل، مدرسة كادر سياسية وفكرية وعلمية وتنظيمية وإنسانية على أرفع مستوى مصري وعالمي، ومن حولها كوكبة النوادي والهيئات السياسية والثقافية: « لجنة نشر الثقافة الحديثة »، مجلة « الفجر الجديد »، مجلة « أم درمان »، وما واكبها في شبيبة الوفد. كانت الركيزة التكوينية التي سعت إلى تنقيب آفاق المستقبل الممكن، فكانت ملتقى للجيل القديم من رجال السياسة الوطنية والتقدمية في مصر، من عصام الدين حفني ناصف إلى الدكتور محمد مندور، من إسماعيل الأزهري إلى عزيز فهمي، من سلامة موسى إلى العديد من وجوه التنظيمات الثورية المواكبة للحركة التقدمية المصرية، بحيث تدفقت هذه الكوادر - منطلقة من هذه القاعدة - إلى إرساء دعائم الجبهة الوطنية المتحدة على شكل اللجنة الوطنية للعمل والطلبة عام١٩٤٦ .

كانت هذه اللجنة ولأول مرة في تاريخ مصر، لجنة منتخبة انتخابًا

ديمقراطيًا على المستوى المصرى فالمندوبون جميعهم منتخبون من كافة مستويات اتحادات الجامعات، وطلاب المدارس الثانوية والفنية، وكذا من جميع نقابات مصر على تنوع وجهاتها وقطاعاتها، بحيث جاءت « اللجنة الوطنية للعمال والطلبة » بلجنة منتخبة على المستوى الوطنى بحق وجدارة، بها أقلية من الشيوعيين الرواد وأغلبية من زملائهم الوطنيين الثوريين المنتخبين بانتخاب حر على كافة المستويات وفى جميع القطاعات، عالم العمال والعلم على أرض مصر المحتلة، كان لابد لهذه اللجنة من فكر وبرنامج. كان لابد لها من مشروع وطنى يؤلف بين مكوناتها المختلفة، ويجمع بين أحلامها، وطموحاتها وتوجهاتها المتباينة، وكذا برامجها السياسية على تنوعها. ومن هنا جاء كتاب « أهدافنا الوطنية » فى ربيع ١٩٤٦ صادرًا عن « دار الأبحاث العلمية » بقلم شهدى عطية الشافعى وعبد المعبود الجبيلى، الوجهين القياديين للدار آنذاك باسمها، واسم لجنة الإدارة المنتخبة التى كانت تتولى توجيه « دار الأبحاث العلمية ».

وسرعان ما أصبحت صفحات وأفكار ورسائل وتوجيهات أهدافنا الوطنية هى المشروع الوطنى الذى تبنته « اللجنة الوطنية للعمال والطلبة » بوضوح الرؤية، وعمق فهم العروة الوثقى التى تجمع بين ضرورة التحرر الوطنى، والتعديل الجذرى لأركان وتوجهات الحياة الاقتصادية، وكذا النظام المجتمعى، وأهمية إقامة ثقافة

وطنية مصرية تقدمية تجمع بين أصالة مصر ومعانى الفكر العلمى والعقلانية وتدخل العالم المعاصر الذى بدأ يتشكل بعد انتصار القوى الاستقلالية والاشتراكية فى الحرب العالمية عام ١٩٤٥.

وكان طبيعيًا أن يتجه شهدى بعد الحملة التى وجهها إسماعيل صدقى باشا يوم ١٠ يوليو ١٩٤٦ ضد الحركة الشيوعية الوطنية الديمقراطية إلى تعميق الطرح الوطنى لكافة القضايا والتحركات، وقد أصبح دون منازع الوجه العلمى لثورة مصر المتصاعدة. ومن هنا كان نضاله من أجل تحقيق مصر التقدمية المصرية، وتوكيد كافة أركان الوطنية بها، وربطها على أوسع مدى بقواعد التنظيمات الوطنية الكبرى المواكبة لها، على تبيانها، وفى مقدمتها شباب الوفد، والقطاعات الثائرة فى قواتنا المسلحة، ومن بينهم نواة «الضباط الأحرار»، وكذا الجماهير الشعبية الملتفة حول الإخوان المسلمين.

تاريخ شهدى فى هذه السنوات كان بحق تاريخ مصر. وكل من سعى إلى تأريخ الحركة السياسية وكذا الحركة الوطنية على وجه التحديد فى مصر المعاصرة، يلقى شهدى صفحة بعد صفحة حيًا رائدًا فى كافة أرجائها لحركاتها وطموحاتها، قائدًا فاتحًا لجميع رياداتها، وكأنه حقًا على موعد مع القدر، قدر مصر التى بدأت تدخل عصر الثورات والثورات المضادة للحروب، وقدره هو ورفاقه

المأسوى. لن نسهب فيه هنا: فالكتب والمؤلفات والرسائل الجامعية والدراسات والمقالات تتزاحم بالمئات ليوم، ومن خلف الزوايا، وهى تؤكد هذا المعنى بصدق، وتدعمه بالمستندات والرؤى التحليلية المتنوعة التى ربما لم تكن كلها واردة لدى العاملين حول شهدى ذاك فى خضم المعارك الثورية المتأججة، وقد بدأت رياح القمع تزداد شراسة، مما أودى به إلى سنوات طويلة قاسية من الأشغال الشاقة فى ليمان طرة، وظلت تلاحقه خلال سنوات الحرية المعاصرة المحدودة، حتى جاء موعد المذبحة فى ١٦ يونيو ١٩٦٠.

من حب الوطن، والانتماء المصيرى لشعب مصر على أوسع مدى جاءت الفكرة المحورية، التركة التاريخية حقيقة لشهدى عطية الشافعى إلى حركتنا الوطنية المصرية، وفى قلبها الحركة التقدمية بكافة فصائلها. كان لابد من تعبئة جماهير شعب مصر العامل أولاً، وكذا مختلف الطبقات والفئات الاجتماعية الوطنية إلى أوسع مدى، باستثناء الأقلية المتعاونة تعاونًا عضويًا مصيريًا مع الاستعمار آنذاك. كان لابد من هذه التعبئة لسبب واضح بسيط كان يسهب فى التدليل عليه ويؤكد مركزيته فى كل تحرك وطنى جاد، ألا وهو أن الوطن المقهور، المحتل، المحاصر لابد له أن يتخطى كافة عوامل التفرقة الداخلية، ويزيلها بوعى وصبر ومثابرة، بحيث يستطيع حقيقة أن يحدث تعبئة وطنية شاملة أوتكاد. فالتعبئة الوطنية الشاملة،

وحدها، هى التى يمكن أن تمكن مصر من الحصول على أكبر قدر من الذكاء الاجتماعى والسياسى، والإمكانات المادية والمعنوية، وكذا ثراء تنوع الرؤى التى تصب فى قنوات الحركة التحريرية والوطنية الديمقراطية. ليس لنا أن نقيم الحواجز بين الطروحات المتنوعة، ليس من شأننا أن نتصومع فى دوائر مغلقة متنافرة يندد بعضها ببعض. ليست رسالتنا أن نقبل العديد من الأفكار المتداولة فى المجال السياسى التقليدى القائم على أساس رفض الحوار اخصب مع مختلف التشكيلات والفصائل والمدارس الفكرية المنطلقة أيضًا من حب الوطن، والمتجهة إلى تحقيق أهدافنا الوطنية عبر مسالك ودروب مغايرة، متباينة، وأحيانًا فى نواح معينة مضادة لتوجهات الحركة التقدمية.

بل وعلى العكس تمامًا: فإن رسالة الحركة التقدمية، لابد وأن تكون دومًا آخذة على عاتقها تخطى هذه العقبات، وإزالة الجدران الصناعية وبناء جسور الحوار والتفاهم والعمل المشترك البناء، تدريجيًا، ولو فى حدود، إيمانًا منها بأن الاحتلال والحصار والانكسار يقتضى باستمرار توسيع الرقعة الداخلية انطلاقًا من حب مصر ووحدة مصر وأولوية مصر فى اهتمام كافة مدارس الفكر والعمل العاملة من أجلها.

رهان بالغ الأهمية، بالغ الدقة. رهان عبقرى على إيمانية لشعب

المصرى بمصريته ووطنيته ووحدته وألويته بالنسبة لكافة الطروحات الأخرى، فى مواجهة الاستعمار العالمى والرجعية، وفوق هذا وذاك فى مواجهة الصهيونية التى ظهرت فى أفقنا حول قرار التقسيم الصادر من الجمعية العامة لهيئة الأمم المتحدة فى نوفمبر ١٩٤٧، وكان شهدى على رأس 'لقطاع الأوسع من الحركة الشيوعية والتقدمية المصرية الذى رفض رفضًا قاطعًا هذا القرار واعتبر أن أهدافنا الوطنية تقتضى أولاً وقبل كل شىء حماية دائرة أمتنا العربية، وكذا حدود مصر الشمالية الشرقية من هذا الخطر الجديد، وقد أدرك هو وصحبه آنذاك أن هذه القلعة الصهيونية سوف تكون نرسانة النفاذ إلى قلب مصر والعالم العربى للتفرقة والدمار بالسيف والنفاق والتسلط والإغراء الزائف.

وقد اتخذ هذا التوجه المركزى الذى صاغه شهدى وقاد التحرك لإنجازه، صورة شعار «الجبهة الوطنية المتحدة» وهو صلب كتابه الوحيد المنشور بشكل مبتور للغاية فقد شطبت الرقابة السياسية ٨٢ صفحة من كتاب..: «تطور الحركة الوطنية المصرية ١٨٨٢-١٩٤٦».

إن مفهوم الجبهة الوطنية المتحدة الذى طرحه شهدى رائدًا وقائدًا آنذاك كان حقيقة بمثابة الخط العام التاريخى للحركة التقدمية المصرية عبر تاريخها المشرق والمأساوى، وعلى رغم ما أصابها من تفرقة وتراجع بل وتردٍّ، وهى فى كل مرة تتخطى وتواصل وتضبط المسار متمسكة، دومًا، بهذا الطرح الواسع الذى جعل لها حقيقة تأثيرًا ونفوذًا

أوسع بكثير من حجمها الفعلى لدى الجماهير الشعبية والطبقات والفئات والتنظيمات الوطنية من أوسع الأبواب.

وهنا لابد أن نلحظ أن الفارق شاسع بين الخط العام التاريخى لأية حركة سياسية، أية مدرسة فكر وعمل متأصلة على أرض الوطن وفى قلوب أبنائه والجماهير الواسعة، وبين الاستراتيجية والتكتيك التى تندرج من هذا الخط العام ساعية إلى تحديد الأهداف المرحلية، وكذا وسائل التنفيذ والتحرك على تنوعها.

شهدى عطية الشافعى رجل صياغة الخط العام التاريخى. من هذا الخط تحركت الحركة التقدمية المصرية فى قلب حركتنا الوطنية دون كلل، بحيث اعتبرها الكثير تاجًا على رأس هذه الحركة، ورمزًا باهرًا لها، على رغم ما أصابها فى الكثير من الأحيان من انزواء واضمحلال وذبول.

ذلك أن الإنجازات الواقعية بل وكذا الاستراتيجية والتكتيكية قد تصيبها الضربات والخلل، وكذا وبطبيعة الأمر الانحراف أو الانزواء. أما الخط العام التاريخى فهو الخيط الموجه لاستمرار المسيرة الطويلة بالمرحلة التاريخية كلها، مرحلة التحرر من الإمبريالية، والصهيونية، التبعية، والتردى المجتمعى والثقافى والحضارى، الخط العام التاريخى لا ينكسر.

★ ★ ★

دروس من الذكريات، وإن كنا لسنا فى مقام الذكريات أو المذكرات.

كيف استطاع شهدى أن يجّمع، ويوحد؟ كيف استطاع أن يغزو القلوب، ويقنع الخصوم؟ كيف استطاع أن يظل حيًا عبر التعذيب والاستشهاد؟ وفى كلمة: كيف كانت مداخل شهدى عطية الشافعى إلى الألباب المصرية؟

نقطة البدء مرة أخرى، كانت دومًا حب الوطن والانتماء العميق إلى شعب مصر. المفاتيح، المداخل، الأسلوب من أرض مصر ووجدان شعبها. الذكاء اللماح والنظرة البصيرة المدققة. وزن الأمور بميزان العقل والوجدان معًا. الاتجاه الدائب والمستمر إلى التأليف بين القلوب، والتغلب على عوامل التفرقة، والإنصات بإمعان إلى كل ما ينير طريق التغلب على العراقيل 'لاصطناعية. كان شهدى حقيقة، وبكل معانى الكلمة، رجل الألفة، رجل التجميع، رجل الحب الصادق، رجل الوفاء حتى آخر لحظة من لحظاته ولا أظن أن هناك شخصًا واحدًا ممن التف حوله أو التقى به ولو مصادفة، إلا ويشهد على صحة هذا الكلام.

صفة ثانية تعلمها شهدى من شعب مصر العامل، من ريف مصر ومصانعها ومدارسها، ألا وهى العمل الدائب، يكاد يكون ليلاً ونهارًا، الجمع بين القراءة والدراسة والكتابة، ثم العمل التنظيمى، بشكل

أصبح أسلوبًا جديدًا حقيقة فى عالم السياسة: فالسياسى لم يعد كما كنا نتصوره، رجل التخطيط والمناورات ثم القيادة الجماهيرية أو الحزبية. ولكنه كان، وفى المقام الأول، رجلا يتعلم من الشعب، يقضى بينه، كما فعل شهدى، ساعات كل يوم دون انقطاع فى الأحياء الشعبية يستمع، ينصت، يتناقش، يتندر، يتعلم، ثم يعود إلينا بحصيلة وكأنها حقيبة جحا السياسية الوطنية نستمع إليها بانبهار، ثم ننطلق بأمر منه نسعى إلى هذا الشعب العبقرى العظيم، المعلم، العالم بأمور الدنيا والآخرة، وريث التركة الحضارية على مدى سبعة آلاف سنة رجل العبور عبر أطول تاريخ عرفته حضارة فى عالمنا المعمور.

يتعلم منه، ثم ينكب وأكاد أقول بشراسة، على الكتب، والمراجع الرئيسية، الكتب السياسية، الكتابات الجديدة التى كانت تدخل مصر بندرة، ثم بغزارة فى مرحلة ما بعد الحرب الأخيرة. الكتابات المصرية، العربية، الأوروبية، وكذا الشرقية، وعلى وجه التحديد كتابات الصين والهند وكانتا فى ثورتين متباينتين - المسيرة الطويلة من ناحية، وتحرك حزب المؤتمر الهندى، ماوتسى تونج وصحبه فى مقابل غاندى وأتباعه - يقرأ بشغف وولع وكأنه مدرك أن الأيام معدودة. وكأنه مدرك، فوق هذا أو ذاك أن العمل السياسى بالمعنى «التقليدى» لا جدوى منه لمواجهة التحدى الحضارى الخانق الذى كان يحيط بمصر.

وعنده أن القائد السياسى، والكادر السياسى، وكل عضو يتصدى لخدمة الوطن وشعب مصر، لابد وأن يكون حقيقة ذلك الفليسوف - فى المدينة - الذى نادى به أفلاطون وأبو نصر الفارابى، وألا يولى أدنى اعتبار للتفرقة بين الفكر والعمل، بين النظرية والنشاط، بين العلم والإنجاز.

ومن هنا كان توجه « دار الأبحاث العلمية » على وجه التحديد، وكذا النوادى وانجلات المواكبة لها، إلى اكتساب صفوة طلائع طلاب الجامعات وشباب القادة النقابيين والكتاب والفنانين والصحفيين، إدراكًا من شهدى أنه، لولاهم، لا تستطيع الحركة التقدمية أن تقود الحركة الوطنية إلى طريق التحرر وبناء المجتمع البديل ودولته الوطنية الديمقراطية بمعنى الكلمة.

فيلسوف فى المدينة، فيلسوف من صفوف الشعب. يجمع بين العالم الخارجى وأرض الوطن. فيلسوف يتصف بعمق التواضع الذهنى والمعنوى والأخلاقى، والاعتزاز الشديد بالكرامة والأصالة ومعانى القيادة والتزاماتها.

- ومن هنا - من تلاقى هذه الروافد الثلاثة لمسيرة شهدى عطية الشافعى - من هنا كان مغزاه التاريخى. لم يرتق إلى مقام الرائد المعلم الذى أضاء طريق مصر فى مرحلة الإعداد للثورة التحررية وتخطيط مسار مصر الجديدة، فى بداية مرحلة تغيير العالم، مصادفة أو اجتهادًا.

لم يفرض نفسه. بل فرضته مقتضيات الظروف التاريخية التى كانت تسعى إلى إيجاد مثل هذا الوجه المتفرد حقيقة فى مجالات السياسة والفلسفة للقيادة الجماهيرية، وكذا - وكيف لا - من حيث عمق إدراكه لمعانى الوجدان الإنسانى والإخاء والوفاء والولاء والمحبة.

كلمات قلائل حول العمل الشامخ الذى قاده شهدى عطية الشافعى، علمًا فى طليعة طلائع صفوف ثورتنا المصرية، والحركة التقدمية العالمية.

علم يرفرف. لن ينكسر. يزداد إشراقًا يومًا بعد يوم. سلامًا إليه سلامًا بين الشهداء، ناصعًا فى تاريخ مصر وشعوب الشرق الناهضة، فى مرحلة تغيير العالم وصياغة العالم الجديد. وسلامًا عليه بين الشهداء إلى جوار ربه، وفى قلوب شعبه ووطنه وأمته.

يوسف إدريس، الكاتب الفاتح

يحتفل وجدان مصر بذكرى عزيزة باسم الدكتور يوسف إدريس الذى غادر هذه الدنيا منذ سنوات.

وفجأة، وبعد طول تهميش إلى حد التغييب، ارتفعت الأصوات تشيد بالكاتب المصرى الوحيد الذى ارتفع طبيعيا، إلى مكانة مواكبة أنطون تشيكوف رائد القصة القصيرة فى العالم المعاصر، بدءا من روسيا على عتبة عصر الثورات، وفجأة أيضا انبثقت صورة صلاح عبد الصبور وقد اقترن اسمه بطبيعة الأمر أيضا بكبير شعراء بريطانيا المعاصرة ت. س. أليوت.

فجأة، وعلى غير موعد مع النفاق يرتفع اسم العلمين لأدبنا المصرى المعاصر.

كان جيل يوسف إدريس هو الجيل الفاتح لثورة مصر تجاه النهضة الحضارية، منذ مطلع الأربعينات حتى السويس وأكتوبر. ولذا كانت تلك الحملة الشرسة لمحاصرته والاستهزاء بمكانته وريادته وإقصائه من دائرة النور، نور السماسرة والعملاء الحضاريين. نفس عملية التغييب التى أصابت الرعيل الطليعى لثورة مصر حول اللجنة الوطنية للعمال والطلبة عام ١٩٤٦.

ولذا كان لزاما علينا أن نقف عند مغزى حياته وفنه، ليس فقط بدءا من ساحة آلاف الصفحات التى جددت فن كتابة القصة القصيرة فى مصر والعالم العربى، وإنما أيضا من حيث اعتبارها تعبيرا عن الريادة التاريخية فى مواجهة تحديات المستقبل المجهول. ومن هنا كان الموقف التساؤلى - إن جاز التعبير - الذى تتسم به نهايات معظم كتاباته وهو فى ذلك يوازى أدب أنطون تشيكوف فى روسيا قبيل اندلاع الثورة. كلاهما يستشعر نهاية عهد دنس مقام الإنسان وإنسانية المجتمع، فأصبح مرفوضا تاريخيا. هذا بينما لم يكن من الممكن فى روسيا فى بداية القرن العشرين ولا فى مصر المحروسة فى الأربعينات من هذا القرن أن ترسم صورة واضحة دقيقة لنمط المجتمع بعد الثورة، وكذا موعد اندلاعها ومسارها. ومن هنا كان الرائدان الكبيران يقومان بدور الفاتح بكل معانى الكلمة. الفاتح الذى ينقب ويتحسس، يهيم ويضىء.

من هنا كان طابع التحدى لكتابات يوسف إدريس التى طالما استفزت المغرورين والمستوظفين وأدعياء الثقافة. وبقدر ما كانوا فى كوكب بعيد عن شعب مصر - ومازالوا - بقدر ما كان يوسف إدريس يعبر عن وجدان وحاسة ونبض وإيقاع الإنسان المصرى فى مطلع عصر الثورة. إنه جيل أقام أعمدة التجديد الفنى والأدبى، وكذا الثقافة الوطنية بجدارة وبراعة لم ينسها شبابنا على رغم التغييب.

أسماء نادرة فى بحر واسع: عبد الرحمن الشرقاوى فى الرواية، صلاح عبد الصبور، وعبد الرحمن الخميسى، كمال عبد الحليم، وصلاح جاهين، وفؤاد حداد فى عالم الشعر، وجمال السجينى وكوكبة زملائه فى ساحة الفنون الجميلة، نعمان عاشور بين الناس اللى تحت والناس اللى فوق، أحمد رشدى صالح أستاذ الأدب الشعبى، ولطيفة الزيات زعيمة الشباب الروائية المرموقة، ومختار العطار ناقدا للفن - عشرات الأسماء حول أحمد بهاء الدين ولطف الله سليم ومن بينها من يواصلون المسيرة والحمد لله: محمود أمين العالم وعبد العظيم أنيس، والتراث الحى لصلاح أبوسيف وشادى عبد السلام فى عالم السينما، جيل كامل من علماء مصر فى الذرة والعلوم الإنسانية والاجتماعية وعلم المصريات والجغرافيا والجيولوجيا، من عبد المعبود الجبيلى إلى محمد عوض محمد وثروت عكاشة.

التركة هائلة حقيقة وكذا ضراوة عملية التغييب، وكأن المطلوب هو تبديد تركة الثورة المصرية وحذف صفحات نيرة من تاريخنا الوطنى.

كان طبيعيا أن تلتبس الأمور، كما حدث فى مناسبة ذكرى رحيل يوسف إدريس.

أعود بالذكرى إلى أمسية دافئة من ربيع ١٩٤٥. كنا مجتمعين فى ندوة يوم الخميس الأسبوعية فى دار الأبحاث العلمية وذلك فى ختام أسبوع كامل من اجتماعات اللجان البحثية المتخصصة.

أخبرنا شهدى عطية الشافعى أن برنامج هذا الخميس من ربيع ١٩٤٥ قد تغير، وأن هناك مفاجأة. وكانت المفاجأة عندما قدم شهدى إلينا شابا وسيما قوى البنية لامع العينين يرتدى الشورت الرياضى الصيفى. قال شهدى إنه طالب فى كلية طب قصر العينى.

وإنه بدأ يكتب منذ قليل القصة القصيرة، وقد رأى شهدى رحمه الله أوسع رحمة أن يقدم هذا الشاب لاجتماعنا - نحو مائة من طلائع الشباب الوطنى التقدمى من أوائل طلبة الجامعات والمؤسسات العمالية الشعبية. قال إن القصة الأولى لهذا الشاب بدت له وكأنها بداية عصر جديد فى القصة المصرية، طالبا منا أن ننصت ونتمعن. وقف يوسف إدريس أمامنا وقرأ بصوت ثابت الصفحات القلائل لقصة « أرخص ليالى » التى أصبحت فيما بعد أولى مؤلفاته.

الكتابة على مستويات وكذا عبر مداخل مختلفة. هذه وتلك تتشابك. اللغة فصحى. صريحة حاضرة. إيقاع القصة يتمرد ثم يتعجل، وكأنه تعبير عن التساؤل والأمل والشجن. عالم أحاط بشخصيات القصة، يحاولون النفاذ إلى غد أكيد لا يعرفون معالمه بعد: أيكون النجاة أو السعادة، الجرح أو التحرر؟.

ساد الصمت. ثم وقفنا نصفق ونحيى مشدوهين. أين ترتيل الأحداث، واختناق العبارات، وامتدادها على عشرات الصفحات حتى نهايات مرصودة مقدما؟ أين الاختناق والدوران فى حلقة مفرغة؟

استشعرنا فى لحظات أن هذا الشاب الصديق من الفاتحين الرواد الذين يضيئون طريقا غير مرصود طريق مصر الغد المرتقب. طريقنا.

لست هنا فى مقام التأريخ والسرد. ولكن المسيرة النيرة - من « أرخص ليالى » وجمهورية فرحات. حتى بيت من لحم والفرافير مسرحيته الوحيدة - أطاحت بأصنام وثوابت، وأقامت علامات ترصد المستقبل بدءا من التراث الحى وكلها تتسم بالإمساك بخصوصية مصر والاعتزاز بها والإيمان بقدرتها على الاستمرار والتجديد والفتح.

ليت الأمر يقتصر على الأدب. ولكن تاريخ يوسف إدريس فى قمة الحركة الوطنية الثورية فى الأربعينات ضد الاحتلال والطغيان لا يقل أهمية عن المسيرة الأدبية - له مجال واسع سوف يطرقه شباب الباحثين فى يوم قريب.

« كان وسيكون » حسب تعبير عبد الله النديم: وساما على صدر مصر.

محمود أمين العالم
فى أصول الثقافة الوطنية

١ - كيف كانت ساحة الثقافة بعد الحرب العالمية الثانية، فى اللحظة التى تأججت فيها الحركة الوطنية لتحرير مصر من الاحتلال وشق الطريق أمام مشاركة فاعلة فى النظام العالمى الجديد؟

النظام العالمى السائد منذ القرن السادس عشر حتى يالتا (١٩٤٥) كان يبدو للعيان وكأنه « أمر واقع » مفروغ منه يجب التعامل معه على أساس أنه لا تاريخ له وبالتالى لا صيرورة له ولا بدائل. ومن ثم كان طبيعيا أن يتعامل أعلام الثقافة المصرية بين الحربين العالميتين على وجه التخصيص مع دائرة واسعة تجمع بين الآداب والفنون والأفكار على تنوعها تأتينا كلها من الغرب، من أوروبا على وجه التخصيص، دائرة تحلق فوق رءوسنا وتحيط طروحاتها ورسائلها وتساؤلاتها وتأزمها بالعقل والوجدان المصرى من كل جانب.

أى إن « الثقافة »، فى هذه المرحلة، كانت تمثل فى معظم الأحيان الناتج الموحّد لمصدر قيل إنّه عالمى وكان بالفعل أوروبيًا غربيًا على

وجه التحديد اللّهم إلاّ فى بعض الحالات النادرة، وكأنها شاذّة. وهذا ما يستشعره الباحث إذ يطالع وثائق الربع الثالث من القرن العشرين، كما قدمته مثلاً منظمة اليونسكو مرآة هيئة الأمم المتحدة للثقافة فى العالم آنذاك.

٢ - ثم بدأ الانتقال إلى مرحلة شاهدت تصاعد الشعور بالربط بين الثقافة العالمية السائدة من ناحية وثقافات متعددة على تنوعها، وهو الجو الذى منه كانت صياغة مفهوم الخصوصية (١٩٦٢ - ١٩٧٠)، ثم الاهتمام بتفاعل الخصوصية والعالمية، بخاصة فى ساحة الثقافة وعلى وجه أقل فى ساحة الفكر والأنظمة السياسية والمجتمعية.

وقد تفرّد الاتحاد السوفيتى بإقامة أول وزارة للثقافة منذ نهاية العشرينات من القرن العشرين بهدف دعم جهود إقامة ثقافة اشتراكية مغايرة لثقافة الغرب المهيمنة ثم كانت المحاولة الثانية فى فرنسا بعد الحرب العالمية الثانية بغية الإصرار على تمايز الثقافة الفرنسية فى عهد ديجول عن الثقافات المهيمنة فى الغرب.

ولعل ما يلفت النظر أن كانت مصر ثالث مركز فى العالم فى مسيرة إنشاء وزارة للثقافة، وذلك تأكيدًا لشخصية مصر الثقافية فى عصر ارتفاع حدّة المواجهة بين الوطنية المصرية والإمبريالية.

٣ - وفى قلب هذا التفاعل الجدلى المتصل المتصاعد منذ الأربعينات نلحظ أن المجتمع المدنى - أى الحركة الوطنية فى تفاعلها مع المجتمع

المصرى بأوسع المعانى - شهد قيام عدد كبير من المراكز والمنتديات الفكرية والسياسية الوطنية وفى طليعتها منذ مطلع الأربعينات مجموعة متميزة حان الوقت لدراسة إسهاماتها ومكانتها فى تاريخ مصر المعاصرة، وفى مقدمتها: « دار الأبحاث العلمية »، « لجنة نشر الثقافة الحديثة »، « اتحاد خريجى الجامعة »، جمعت بينها صحافة من نوع جديد: « الفجر الجديد »، « أم درمان »، « الجماهير » ثم « المصريين »، جنبا إلى جنب مع قطاع شباب الوفد فى « المصرى »، و« صوت الأمة ».

كانت هذه المراكز والصحف الثقافية السياسية - الوطنية التقدمية بمثابة القلب النابض والفكر الرائد للجبهة الوطنية المتحدة التى شاركت فيها معظم القوى السياسية والمدارس الفكرية الوطنية والتى كانت « اللجنة الوطنية للعمال والطلبة » المنتخبة (١٩٤٦) رمزًا لها.

٤ - فى هذا الجو بالذات، واستنادًا إلى إسهامات ومبادرات، إلى عدد من إبداعات، الفكر والوجدان المصرى جاء كتاب: « فى الثقافة المصرية » (١٩٥٤) لمؤلفيه محمود أمين عالم والدكتور عبد العظيم أنيس يعلن أن الثقافة تقوم على أساس تفاعل العملية المجتمعية لكافة الوحدات المجتمعية التكوينية وكذا كافة وسائل الإنتاج المتاح لها. ومن ثم ارتبطت إجابة التساؤل عن طبيعة العناصر التكوينية

وخصائص وأنماط الثقافة المصرية بالإجابة عن سؤال مركزى والذى كان وما زال محورًا للفكر المصرى « ما هى شخصية ثقافتنا المصرية؟ » وباختصار شديد أكّد المفكران الرائدان حقيقة الصراع بين التوجّه إلى رفع مستوى الواقع المصرى وإزالة كافة القوى التى تتصدى لنموه وذلك فى مواجهة الإمبريالية.

كانت هذه الرسالة مناقضة تمامًا للفكر الثقافى السائد آنذاك بدءًا من رسالة الشاعر البريطانى الكبير ت.س. إليوت فى كتابه: « نحو تعريف للثقافة » الصادر عشيّة العدوان الثلاثى ضد مصر بعد تأميم قناة السويس. ومن الملفت للنظر أن التعليل النقدى لأهم الأفكار التوجيهية لكبار كتاب هذه المرحلة اتسم بطابع نقدى صريح، من قصور دراسة طه حسين لمسألة « مستقبل الثقافة فى مصر » فى تعريف خصوصية مصر فى الفكر والتعبير « لم يكن التركيز آنذاك على التوجه الأوروبى الغربى لمستقبل ثقافتنا » إلى « عودة الروح »، ثم « بيجماليون » لتوفيق الحكيم وكذا موسيقى محمد عبد الوهاب - وقد رأى المؤلفان أنها تمثل غلبة الطابع السلبى بالمقارنة مع موسيقى وأغانى سيد درويش النابعة من صميم الشخصية المصرية.

٥ - وقد ترتب على حدّة صراع الوطنية المصرية مع الإمبريالية أن أصبح من الممكن والواجب معًا الانتقال من تأكيد حقيقة الثقافة

المصرية وواجب التركيز عليها وتطويرها إلى تحديد طابع هذه الثقافة من حيث المعنى.

من هنا كان عدد من المحاولات وقد رصدها الدكتور محمد حسين في مجلدي «الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر» (١٩٥٤ - ١٩٥٦). هذا في الوقت الذي ركز فيه الدكتور لويس عوض على «المؤثرات الأجنبية في الأدب العربي الحديث» (١٩٦٣ - ١٩٦٤). ثم كان الانتقال إلى مفهوم «الثقافة الوطنية» وهو الذي قدمناه في كتاب «دراسات في الثقافة الوطنية» (١٩٦٧)، ثم ركز عليه الدكتور جمال حمدان في كتابه الفاتح «شخصية مصر دراسة في عبقرية المكان» (١٩٧٠) - القائمة تطول لو أردنا تأريخ الفكر المصري لموضوع الثقافة الوطنية. وقد رأينا أن نكتفي الآن بتقديم عدد من النماذج الدالة.

٦ - هل آن الأوان لرصد الجديد في مسيرة الثقافة الوطنية، ومستقبلها المرتقب؟ وكان أحمد رشدي صالح قد فتح الطريق في كتابه الرائد: «في الأدب الشعبي».

(أ) دراسة الثقافة الوطنية المصرية وتطويرها يبدأ من إنجازات الحركة الوطنية المصرية عبر معارك التحرير والثورات والحروب. وقد اتسعت الدائرة منذ منتصف خمسينات القرن العشرين إلى الساحة

العربية ثم الإسلامية بطبيعة الأمر. ولكن النواة التكوينية التى هى بمثابة منبع الأفكار والإنجازات كانت وما زالت - وفى تقديرنا - سوف تظل هى دائرة الأمة المصرية بكافة عواملها التكوينية وقواها المتناقضة المتشابكة فى وحدة لا تندمل. أى إن البدء على الدوام من مصر فى الأساس، ثم على ترابطها بالدوائر التكوينية المحيطة.

(ب) الثقافة الوطنية فى مصر لا تمثل مجرد إنجازات وأعمال على تنوع قطاعاتها ومستويات جودتها، على الساحة الأوسع للآداب والفنون. بل إنها تمثل على الدوام التفاعل الجدلى بين استمرارية الشخصية المصرية وإبداعاتها وإفرازاتها ومجموعة الرؤى والأفكار الموجهة أى فلسفة هذه الثقافة من ناحية وفى تفاعلها مع الحركة المجتمعية وتعبيراتها السياسية من ناحية أخرى.

أى إن الثقافة الوطنية المصرية هى بعد تكوينى من وحدة خصوصية شخصية مصر «القومية، الثقافية، الحضارية» يدًا فى يد مع التوجهات الجديدة للفكر المصرى وكذا التفاعل الجدلى المستمر مع ما يقدمه «الآخر» على تنوع خصوصياته من أفكار ونظريات وأشكال تعبيرية جديدة على تنوعها ومغايرتها.

٧ - وفى كلمة، فإن الثقافة الوطنية عنصر تكوينى وتعبير مُدَوٍّ للتوجه العام لشخصية مصر فى مطلع مرحلة صياغة العالم الجديد،

أى فـى كلمة التوجـه الحضارى لمصر مجتمعًا وفكـرًا، حركةً وثقافةً. وجدانًا وعقلاً وتطلعًا.

باب عظيم الأهمية فى هذا المستوى الحضارى الثالث بعد تأكيد مفهومـى الثقافـة المصرية والثقافة الوطنيـة، وقد رأينا أن يكون فى هـذه المناسـبة تحيـة لواحد مـن روادهـا المرموقـين، الصديـق المفكر الكاتب محمود أمين العالم.

جمال حمدان..فى أصول الشخصية المصرية

محطة اليوم مع زميل صديق نبيل عزيز يعيش دائما فى الذكرى والوجدان. تشاء الظروف أن يذكر الجيل الجديد من شباب مصر اسم جمال حمدان، على رغم تغير الظروف وتبدل الأحوال. تشاء الظروف بأن الراحل الكبير استطاع أن يقدم المعالم الرئيسية لفكره الجيو - سياسى والجيو - استراتيجى حول شخصية مصر فى المرحلة التى راحت فيها أمتنا دولة وشعبا تستعد لمحو نكسة يونية ١٩٦٧، أى، وبالتحديد: مرحلة حرب الاستنزاف والاستعداد لعبور أكتوبر ١٩٧٣ قبل أن يحاصر سياسيا.

ومن هنا، لا يمكن أن يكون موضوع هذا اللقاء الجديد فى المرة تلو المرة، لتقديم أفكاره، وقد تزايد عدد الكتابات والندوات حول هذا الموضوع، حتى ولو كان من الواجب أن يحرص عدد غير قليل من الذين تصدوا للتقييم والتقديم. تقديم جمال حمدان وكذا تقديم أنفسهم أن يدققوا النظر فى نواح أصبحت غير مرغوب فيها فى أيامنا من الأفكار الرائدة أو الإشكالية التى عبرت عن جيل ٢٣ يوليو ١٩٥٢. أذكر بهذه المناسبة، بين قوسين واستسماح القارئ، كيف أنه عاش المرحلة الأخيرة من عمره القصير فيما يشبه عزلة الناسك قالوا: إنها

عزلة فرضها هو على نفسه. فى مواجهة هرولة قطاع واسع من زملائه المفكرين والمثقفين إلى السير فى ركب التطبيع باسم السلام حول علاقة كامب ديفيد منذ ١٩٧٨. التقيت به فور عودتى إلى أرض الوطن يوم ١٤ يناير ١٩٧٤، وكان لقاء ١٩٧٥ الروح مع الجيل الجديد. توالت اللقاءات. وقد شاء هو أن يحدد يوما بالذات أستطيع أن أقصده فى صومعته وأطرق الباب بطريقة متفق عليها فينفتح الباب والقلب والوجدان والعقل ونقضى ساعات تلو ساعات فى تبادل المعانى والنقاش المتعمق، دون مجاملة ولا محاولة للتجميل والتزيين، علاقة لن أنساها، وربما وجب تقديمها بالتفصيل إلى شباب مصر فى الوقت المناسب. وجدته جريحا متألما، محاصرا بموجات الحسد والحقمة والتنكر التى اضطرته أن يترك منصبه أستاذا للجغرافيا بكلية الآداب جامعة القاهرة ليتفرغ للتأليف. لم يسترسل أبدا فى نقد من أساءوا إليه. كان همه أن ينكب على عمله وأن ينجز جله وكأنه يشعر أن الأيام المتاحة محدودة.

من هنا رأيت أن أركز على الرسائل الفكرية التى قدمها جمال حمدان، وربما لم تلق الاهتمام الكافى، إذ إنها سلكت محاور غير مألوفة أو مرغوبة.

العدل أساس العمران:

الاستمرارية المصرية ليست عملا إراديا.. أو إداريا مصطنعا، أو طارئا، وإنما هى من جل علاقة مجتمع المصريين بالمحيط الجغرافى عبر عشرات الأجيال من التاريخ:

١ - حقا إن الزراعة المصرية عرضة لذبذبات المناخ، وفلاحها من ثم تحت رحمة الطبيعة، ولكنك لست بحاجة - ولن تستطيع إن أردت، وهذا هو المهم - أن تخطط للمطر.

من هنا فقد تكون الطبيعة سيدة الفلاح، ولكن الفلاح بعد ذلك سيد نفسه. وهذا فى نفس الوقت يمنح الفلاح فرصة للفردية بدرجة أو بأخرى.

أما فى بيئة الرى فالأمر مختلف كل الاختلاف. فالوادى فى فجر تاريخه ليس مصرفا طبيعيا ولكنه مستنقع اسفنجى ملارى مشبع. ولا زراعة ولا تعمير إلا بعد التصريف والتقيل. لابد - يعنى - من مجهود بشرى جماعى ضخم حتى تعد الأرض - مجرد إعداد - لاستقبال الذرة. وبعد هذا فلا بذر حتى توصل المياه إلى الحقول، أى لابد من شبكة غطائية كثيفة من الترع من كل مقياس ابتداء من قنوات الحمل وقنوات التغذية إلى مساقى الحقول. حتى تزرع إذن لابد لك أولا من أن تعيد خلق الطبيعة. ثم ما جدوى تلك الشبكة إذا لم تسيطر على أعناقها ورءوسها بالنواظم والقناطر والسدود؟ أعنى أى جدوى فيها بغير ضبط النهر؟

٢ - وأكثر من هذا، ما جدوى الجميع بغير ضبط الناس؟ إن زراعة الرى إذا تركت بلا ضابط يمكن أن تضع مصالح الناس المائية فى مواجهة بعضها مواجهة متعارضة دموية. ذلك أن كل من يقيم على

أعلى الماء يستطيع أن يسىء استعماله إما بالإسراف أو بحبسه تماما عمن يقع أسفله. أى إن كل حوض علوى يستطيع أن يتحكم فى حياة - أو موت - كل حوض سفلى. لمصلحة إذن واضحة: بغير ضبط النهر يتحول النيل النبيل إلى شلال حطيم جارف، وبغير ضبط الناس يتحول توزيع الماء إلى عملية دموية، ويسيطر على الحقول قانون الغاب والأدغال، ولو تركت البيئة المصرية غابا اجتماعية لما تطورت عن الغاب الطبيعى الذى بدأت منه.

٣ - فى ظل هذا الإطار الطبيعى يصبح التنظيم الاجتماعى شرطا أساسيا للحياة، ويتحتم على الجميع أن يتنازل طواعية عن كثير من حريته ليخضع للسلطة التى توزع بالعدل بين الجميع، سلطة عامة أقوى مما يمكن أن تتطلبه بيئة لا تعتمد على نهر فيضى فى حياتها ومصيرها. وبذلك لا تكون الطبيعة وحدها سيدة الفلاح وإنما بين الاثنين يضيف الرى سيدًا آخر هو الحاكم.

هنا يصبح الحكم والحاكم، وسيطا بين الإنسان والبيئة أو وصيا على العلاقة بينهما وهمزة الوصل بين الفلاح والنهر. أى إن الفلاح لا يتعامل مع الماء مباشرة، وإنما من خلال الحاكم. وبتعبير آخر فإن الحكومة - فكرة وجهازًا - هى بالضرورة أداة التكامل الإيكولوجى

بين البيئة والإنسان. إنها تبدأ نتيجة وضرورة جغرافية، لتنتهى عاملا جغرافيا بكل معنى الكلمة.

ومن تلك العناصر جميعا يتألف فى النهاية المجتمع الهيدرولوجى النموذجى. الذى تنسج خيوطه من ثلاثة: الماء، والفلاح، والحكومة - والأخيرة طرف فى المعادلة لا يقل أصالة وضرورة وحتمية عن الطرفين الآخرين. بل إننا يمكننا أن نذهب إلى حد القول بأن أصل وظيفة الحاكم والحكم فى المجتمع الهيدرولوجى على وجه التحديد هى وظيفة وزارة الأشغال والرى أكثر منها وزارة الزراعة بعامة.

٤ - هذا عن الحكومة، أما عن المجتمع فهو أساسا مجتمع تعاونى منظم لا يعرف من الفردية صورتها الضارية أو الدموية المتوحشة، ويدرك قيمة وحتمية العمل الجماعى بلا أنانيات محلية أو تعبيرات ضيقة أو نزاعات عدوانية. ويعبر إميل لودفيج عن هذا بصيغة أخرى هى صيغة الكثافة، كثافة السكان، فيقول وهنا نجد فى القرية المصرية، فى صميم تركيبها وسيكولوجيتها وزراعتها، قدرا كبيرا متوطنا ومتأصلا من التعاونية والمشاركة التلقائية. فالقرية المصرية بالضرورة الجغرافية نووية مجمعة، فهى خلية بشرية متلاصقة متلاحمة: ثم إن أغلب حياة الفلاح هى فى مناخ مصر المشرق فى الهواء الطلق خارج المسكن، وهذا ابتداء يجعله كائنا اجتماعيا غير منعزل أو انطوائى.

ماذا حدث – إذن حتى يصيب الانحدار مصرنا المحروسة؟

كيف بدأ التهميش، وتفشى الأزمة فى الداخل؟ كيف دخلت أم الدنيا إلى ظلام التغييب؟

١ – من الذى ورث موضع مصر؟ البرتغال هى التى ورثته، بمثل ما ورثت مصر من قبل موقع العراق، إلا أن الأخيرة وراثة شرعية طبيعية، بينما البرتغال سرقت موقعنا فى الحقيقة (بمثل ما سرق الأتراك زعامتنا العربية) على أن دور البرتغال لم يطل، فقد انتزعته منها هولندا وبريطانيا بعد حين، وتجاذبتاه فيما بينهما فى مرحلة مشتركة كمرحلة مصر والعراق فى العصر العربى، إلى أن انفردت به بريطانيا مثلما انفردت به مصر من قبل، ومن ذلك الحين استقر موقع بؤرة وعقدة العالم فيها.

وبمعنى آخر فإن هذا المركز ظل يهاجر ويتحرك محوريا إلى الغرب فإلى الشمال حتى آل موقع مصر الوسيطة الجغرافى إلى بريطانيا الحديثة وبعد أن كانت بريطانيا على هامش المعمورة ونهاية العالم – استراليا إلى العصور الوسطى كما وصفت – استبدلت مكانها مع مصر، فأصبحت فى قلب العالم الجديد بنصفيه الشرقى والغربى، كمصر فى قلب العالم القديم بين قاراته الثلاث، وأصبح المحيط الأطلسى هو البحر المتوسط الجديد، بينما تحول البحر المتوسط التاريخى إلى بركة صيد آمنة كبلطيق جنوبى.

٢ - لعلنا لا نسرف فى التصور والاستنتاج. إذ إن هذا الانقلاب التدهورى قد دمغ تطورنا الاجتماعى وتركيب مجتمعنا التاريخى بآثاره، وسلبه إمكانيات واحتمالات نموه الداخلى بمثل ما سلبه موقعه الخارجى، فمن المعروف أن التطور الاجتماعى الذى حدث فى بريطانيا وغرب أوروبا عامة، وأزاح الإقطاع إلى المؤخرة ودفع إلى الصدارة بالبورجوازية التجارية **أولا** ثم بالرأسمالية الصناعية **ثانيا**، بدأ وبسبب انقلاب العلائق السكانية وعلاقات ما وراء البحار الاستعمارية الجديدة..

٣ - ومهما يكن من أمر، ومهما طال الانتظار، فقد كانت مصر على موعد مع قدرها لتستعيد مكانها الحقيقى فى الإطار العالمى مع شق قناة السويس فى ستينات القرن التاسع عشر. وهذا هو الدور الخامس والأخير فى دورات موقعنا الجغرافى ولكنه وحده ثورة كاملة، ويتطلب دراسة خاصة، غير أن القناة يسبقها عود قصير على بدء العصور الوسطى، يتمثل فى طريق البريد الذى رتبه توماس واجهورن فى أوائل القرن التاسع عشر بين السويس والقاهرة والإسكندرية، جامعا بين الطريق الصحراوى وطريق فرع النيل ثم جاءت السكك الحديدية فكررت نفس الاستراتيجية. فهذا كله وبالدقة هو طريق تجارة العصور الوسطى الإسلامية أساسا، على رغم أن الأخير استبدل الطريق الصحراوى أحيانا بترعة مائية فى شرق الدلتا تصل البحر

الأحمر بالنيل كقناة أميرا لمؤمنين مثلا، ولكن الكل طريق يرى فى نهاية الأمر، ولذا سمى بالأوفر لاندروت.

وهنا بالتحديد يظهر اختلاف قناة السويس وأصالة استراتيجيتها، فهى تصل البحرين الأحمر والمتوسط بطريق مائى بحرى بحت ومباشر دون أية حلقة برية وسيطة، وبالتالى فهى لا تنتظم أى انقطاع فعلى أو تعدد فى الشحن والتفريغ. ولذلك فقد جاءت القناة أكبر عامل اختزال فى جغرافية النقل الكوكبية، أعدت توجيه القارات وروجت القيم الجيوماتيكية، فبعملية جراحية جغرافية، صغيرة نسبيا، اختزلت قارة برمتها هى أفريقيا، وأسرت طريق الرأس أو أعادت وضع الشرق العربى ومصر فى قلب الدنيا وفى بؤرة الخريطة.

٤ - من السهل أن نقول إن أوربا الغربية تدين للقناة بالجزء الأكبر من طفرتها الصناعية والحضارية الحديثة حتى وصلت إلى درجة التشبع.

فهى التى قربت ثروات المستعمرات والمداريات ووضعتها عند أطراف أصابعها بأرخص التكاليف وهى التى قدمت لها الخامات والأسواق.

حقا لقد وضعت القناة، التى تكاد تلخص موقع البلد، وضعت يد مصر على نبض العالم كله، وأصبحت لها بمثابة مقياس ضغط حساس أو جهاز عصبى دقيق، وأعطتها نافذة أو طاقة على الدنيا، وحقا ربما كان لهذا نصيب فى سبق مصر النسبى إلى الحضارة

الحديثة إذا قيست ببلاد مماثلة ولكن علاقة الرخاء المتبادلة بين وادى النيل وطريق السويس التى كان يفترض استعادتها، أتت مع إيقاف التنفيذ إن صح التعبير، لأن مصر لم تكن تملك القناة وظلت مجرد متفرجة لا مستثمرة (بلغ دخل القناة فى ١٩٥٥ نحو ٣٥ مليون جنيه، كان نصيب مصر منها مليون جنيه فقط أى ٣٪)، بينما عاد الاستعمار وخاصة بريطانيا التى ورثت من قبل موقع مصر الجغرافى الوسيط ليسرق موقعها الحديث!

٥ - ولكن وظيفتها بدأت تتطور جوهريا منذ الحرب العالمية الثانية، فقد صفى دورها الاستعمارى القديم أو كاد وأصبحت شريان الزيت أساسا وحلقة الوصل بين الشرق والغرب خاصة وبعد أن كانت عنق الهند أصبحت بحق عنق أوروبا التى تعيش على البترول، وتعيش فى البترول على الشرق الأوسط وإذا كان الخليج العربى هو خليج الزيت بامتياز، فإن قناة السويس هى قناة الزيت بالضرورة، لأن حركة البترول فيها تمثل ٧٢٪ من مجموع الحمولة، بينما تحتكر بدورها نقل ٧٠٪ من بترول الشرق الأوسط الذى يتحرك غربا فهناك إذن زواج اقتصادى وثيق بين بترول العرب وقناة العرب. والقناة اليوم هى أهم ممر عالمى استراتيجى لأهم سلعة استراتيجية فى العالم. لكن مرة أخرى يكشف الموقع نفسه كعامل غير مضمون تماما. فالقناة بدأت تتعرض لضغط وتحديات، ولا نقول أخطارا، من

عدة مصادر وأنواع يمكن أن نصنفها إلى ثلاثة: الأنابيب، الناقلات الضخمة، إسرائيل.

٦ - وعند جمال حمدان أن الخطرين الأولين يمكن تحييدهما بالوسائل التقنية والإصرار على أن تكون القناة تحت السيطرة الكاملة للدولة المصرية وتطويرها بواسطة أرقى التكنولوجيات المعاصرة.

يبقى أخيرا التحدى الثالث والدخيل، إسرائيل. هذا كما أثبتت التجربة ينقسم إلى قسمين:

محاولة منافسة القناة، محاولة شل القناة. فالمنافسة تهدف إلى سرقة موقع القناة. وخنق دورها بدرجة أو بأخرى ووسيلة ذلك اثنتان: مشروع أنبوب بترول إيلات - أشدود، وفى وسط حصار البترول العربى لا يعتمد المشروع إلا على بترول إيران أساسا، ويبقى أن نرى إلى أى حد سيتحقق هذا الاعتماد. أما الوسيلة الثانية فهى مشروع قناة بحرية منافسة لقناة السويس، تأسر بها جزءا من حركتها، من إيلات إلى قرب أشدود.

أما محاولة شل قناة السويس، فتأتى عن طريق العدوان العسكرى، كما تكرر مرتين حتى الآن. فالعدوان على سيناء يسد القناة آليا ويضعها فى النفتالين، لفترة أو لأخرى، ويؤدى إلى إيقاف موقع مصر بدرجة أو بأخرى، والمغزى الجغرافى لهذا الموقف - على رغم أنه مؤقت

وعابر تماما وأساسا - لا يمكن أن يخطئه أحد: إنه يعود بنا- وبالعالم معنا - إلى نمط عصر ما قبل القناة، نمط العصور الوسطى مباشرة بكل مركباته وتوازناته: البحر المتوسط وكذلك الأحمر يتحولان إلى زقاق مغلق أو إلى بحار شبه داخلية، موانيها تشكو تضاؤل نشاطها: طريق الرأس عاد كبديل ومنافس بينما أن بدء مصر أخيرا فى مد أنبوب بترولى عالمى بطاقة ٧٠ مليون طن وبطريق السويس - القاهرة - الإسكندرية يكمل تفاصيل نمط العصور الوسطى أو الأوفر لاند روت بنفس مراحله ومحطاته!

واضح - بداهة - أن وجود إسرائيل تهديد دائم لكيان مصر وسيادتها ولكن بما فى ذلك موقعها الجغرافى أولا وعلى وجه التحديد وإذا كان الخطر الإسرائيلى قد عجز للآن عن تهديد كيان مصر ذاتها، فقد سلبها موقعها الأثير أو عقمه وإن مؤقتا ووقوع سيناء لا يعنى قط وقوع مصر، ولكنه يعنى بالضرورة توقف القناة، هذا فضلا عن أخطار أنبوب إسرائيل الزاحفة وتلويحات قناة صهيون المزعومة، والأوضح - بداهة - أنه لا أمان ولا ضمان لمصر مع بقاء إسرائيل، ولن نؤمن قناتنا وموقعنا حقا إلا بذهاب إسرائيل وعندها أو بعدها يمكن أن نتطلع إلى الصورة الطبيعية لتخطيط موقعنا وتوظيف قناتنا.

على هذا النحو يفهم جمال حمدان ورواد المدرسة الجيو سياسية والجيو استراتيجية المصرية استراتيجية السلام.

المستقبل والبعد الأسيوى:

إلى هنا، وما زلنا فى الدائرة التطبيقية للفكر العربى، دائرة التفاعل والصراع مع الغرب، عبر المتوسط، إيجابا وسلبا حسب العصور.

وفجأة، وبدءا من الدائرة العربية، ينطلق جمال حمدان إلى إدراك مكانة مصر، مقامها ورسالتها، فى قلب الشرق الحضارى، فى آسيا منذ القدم وحتى اليوم. يقول:

١ - تعدد الأبعاد والجوانب فى كيان مصر وتوجيهها نتيجة طبيعية ومنتظرة للموقع الثورى فى قلب مثلث القارات. فمصر حلقة بين العالم المتوسطى وبين حوض النيل برمته. ومن الناحية البشرية والاجتماعية البحتة كانت حضارة مصر العربية التى تروى بحضارة أوروبا الوسيطة شمالا تنتكس أثناء مجاعات العصور الوسطى الرهيبة إلى ما يذكر بحضارة العالم الزنجى جنوبا بعجزه وتواكله. ومعنى هذا أن مصر لها بعدان أساسيان هما البعد الأفريقى والبعد الآسيوى، وكل منهما ساهم فى تكوين شخصيتها وتحديد لونها بنسبة معينة. فالبعد الأفريقى أمدنا بالحياة - بالماء والسكان، ولكن البعد الآسيوى أمدنا بالحضارة - وبالثقافة والدين منذ العرب وحتى فى العصر الحديث وفى الجانب السياسى تمثل البعدان فى حركات الوحدة السياسية التى دخلتها مصر: مع السودان أولا ثم مع سوريا بعد ذلك. هكذا تتحدد لنا أبعاد أربعة فى توجيه مصر:

الآسيوى والأفريقى على مستوى القارات. والنيلى والمتوسطى على المستوى الإقليمى.

٢ - من بين البعدين القاريين، الخطر دائما وأساسا للبعد الأسيوى الذى يأتى مبكرا باستمرار، بينما يغلب أن يتأخر الأفريقى زمنيا، فعلى رغم أن مصر فى أفريقيا موقعا، فقد كانت أبدا فى آسيا واقعا، ففى علاقاتها الخارجية كانت مصر القديمة آسيوية أكثر منها - أو يقدر ما هى - أفريقية وحتى دون أن ننسى المؤثرات الأسيوية فى القرن الأفريقى وشرق أفريقيا. يمكن أن نقرر بسهولة أن مصر هى أكثر أفريقيا آسيوية. والانحدار التاريخى والجاذبية الجغرافية فى مصر هى أساسا نحو الشمال عموما، والشمال الشرقى خصوصا. لماذا؟

إن نظرة إلى الخريطة تكشف لنا حقيقة بسيطة ولكنها دالة، فالنيل فى مصر لا يجرى فى منتصف الصحراء ولكنه يجنح بتحيز واضح نحو الشرق، قل تقريبا بنسبة الثلث. - الثلثين. ولو كان النيل يجرى أكثر غربية لتغيرت بلا شك اتجاهاته. ثم إن النيل لا ينحدر ويصب شمالا فحسب. ولكن وزنه وثقله الفعلى يزداد كلما تقدم شمالا مع اتساع الوادى عموما.

٣ - وإلى جانب سيناء يأتى البحر الأحمر كدهليز طويل يفضى بمصر إلى غرب الجزيرة العربية حتى اليمن مثلما كان طريقا لها إلى

القرن الأفريقى، وبذلك يشارك فى البعدين الأسيوى والأفريقى. أى إننا يمكن أن نتساءل - كما تساءلنا عن سيناء.

ومن محصلة هذه الضوابط الأولية - جنوح النيل إلى موقع شرقى، وطريقى سيناء والقصير - دخلت مصر فى علاقة حميمة مع غرب آسيا.

ويمكن أن نقرأ صدى لهذه العلاقات الآسيوية التاريخية فى أسماء الأشخاص المعاصرة فى مصر، فثمة مجموعة ليست غير شائعة تشتق أصولها من أسماء الأماكن فى جبهة الالتحام بين الشام والأناضول والقوقاز أو غرب آسيا عموما، وتستخدم على الطريقة التركية للأم فى النسبة. هناك مثلا العنتبلى (من عينتاب) المرعشلى (مرعش)، المردنلى (ماردين). أورفلى (أورفا، الرها قديما)، الخربوطلى (خربوط)، البابلى (الباب، قرب حلب)، وانلى (بحيرة وان)، الشيشينى (شعب الشيشين المجاور للشراكسة)، أباظة (شعب الأبازة فى منطقة القوقاز)، الشوباشى (شعب الشوفاش على الفولجا).. الخ.

٤ - الجغرافيا - التاريخ السياسى، الدين: ساعة التوحيد: ومن الناحية الدينية البحتة لم تنفصل مصر كذلك عن دائرة الحلقة السعيدة قط، سواء قبل الإسلام أم بعده؟ الحقائق اللافتة للنظر أن مصر كانت دائما طرفا فى قصة التوحيد بفصولها الثلاثة، فمواطن

الأديان التوحيدية فى فلسطين وسيناء والحجاز ترسم فيما بينهما مثلثا أو سهما رأسه بشكل مماس لمصر فى سيناء فقد انصبت هذه الرسالات جميعا فى مصر على التوالى، وإن كانت كل فرشة منها تطغى وتغطى على سابقتها حتى سادت أخراها فى النهاية، وإلى هذا، فإن مصر لعبت فى مراحل الدعوة إلى ثلاثتها دورا أو آخر، فكانت لموسى عليه السلام قاعدة ومنطلقا، ولعيسى عليه السلام ملجأ وملاذا، بينما كانت مع النبى محمد صلى الله عليه وسلم هدية ونسبا.

٥ - إلى أن يأتى تحديد ساحة التحرك الاستراتيجى الحيوى لمصر فى عصر الثورات والحروب فى النصف الثانى من القرن العشرين. أما فى الوقت الحاضر فلا جدال أن الثقل الأكبر من السياسة القومية لمصر الثورة يتجه إلى الجبهة الأسيرة. عودا فى الحقيقة على بدء قديم التاريخ. وقد أكدت قضية فلسطن هذا التوجيه وحتمته تماما مثلما فعلت الحروب الصليبية فى العصور الوسطى، ومنذ حرب فلسطين ثم منذ الثورة خاضت جيوش مصر معاركها الأساسية على الجبهة الأسيوية بما فى ذلك اليمن، فمن الواضح إذن أن البعد الأسيوى هو البعد المحورى فى توجه مصر الخارجى، وأنه أساس علاقة أخذ وعطاء من طرفين، تمتاز بالاستمرار والإطراد دون ذبذبة أو تقطع. ولا شك أنها نظرة غير علمية إطلاقا، إن لم تكن مغرضة حقا، تلك

التى حاولت حينا ما أن تبتر بعدنا الأسيوى زاعمة أنه لم يجئنا من آسيا خير قط، إشارة إلى أخطار قديمة كالمغول والترك.. الخ، فى إشارة مبتورة ناقصة بقدر ما هى مضللة.

هكذا يكمل جمال حمدان مشوار صبحى وحيدة: فإذا كان التهديد يأتى من الموجة الغربية يكون الغد الأمل فى رحاب الشرق الحضارى.

قال صاحبى:

أفكار أيام زمان؟ أو أفكار أيام الإصرار على الدوام؟.. الغريب، أحيانا، أن عددا من أصحاب الأقلام يترددون، وقد حاصرتهم، أمواج، قبول الأمر الواقع..

كنتم تتحدثون عن شروط استمرارية شخصية مصر.. وأصبح الحديث عند بعض النبهاء عن ضرورة تطويع الإرادة، وترويض النفوس..

تكتيك التبعية؟ أو الاستراتيجية الحضارية؟.. جمال حمدان بين الناس، يسكن البيوت والقلوب، والحمد لله!..

لطيفة الزيّات ..فى سماء مصر !

إن كان العزاء والنعى والمواساة من مقام الطقوس الإنسانية والاجتماعية، فإن رحيل لطيفة الزيّات، فى هذه الظروف السوداء فجر فى العقل والوجدان، فى فؤاد كل مصرى ومصرية وعربى شيئا قيل - المرة تلو المرة -: إنه غاب إلى غير رجعة، بحيث يجب أن نكتفى بما هو ممكن، ونرضى بالأوضاع المفروضة وتقلص دائرة الرؤية والخيال والأمل المصرى إلى غير رجعة.

الغريب المفاجئ أن كتابات القسط الأعظم ممن لم يعرفوها فى شبابها، بل ولم يسمعوا عنها إلا مؤخرا عندما عادت أسماء مصر العزيزة تدريجيا إلى الساحة. الغريب المفاجىء أن الكل شاء أن يركز على لطيفة بوصفها رائدة للحركة الوطنية وعلما لطلائعها على رأس اللجنة الوطنية للعمال والطلبة، التى سطعت فى أرض مصر شهورا قلائل عام ١٩٤٦ بل والتى عادت إلى الوجود. فجأة ظاهرة محورية فى تاريخ حركتنا الوطنية وأمتنا المصرية العربية بفضل رحيل من أنارت وأشرقت تحرك مصر فى المرحلة التى انطلق فيها هذا التحرك وهز أركان الامبريالية (أى النظام العالمى التقليدى) وشق الطريق إلى عالم جديد ممكن.

المفاجأة حقيقة أن أستاذة الأدب المرموقة رئيس قسم الأدب الإنجليزى بجامعة القاهرة والروائية النابغة و لإنسانة التى عاشت رحلة محاصرة المرأة المصرية والإنسانة التى عاشت رحلة محاصرة المرأة المصرية وكسرها لهذا الانتشار حتى التحرر المتحضر. كما تشهد على ذلك (الباب المفتوح).. (الشيخوخة) الرجل الذى عرف تهمته. من الغريب أن كل هذه النواحى الشخصية أو على حد أسلوب تلاعبها الباسم بالكلمات كل هذه (اللطيفات) انزوت لتفسح المجال المشرق واسعا لمكانة لطيفة الزيّات الحيوية فى قلب حركتنا الوطنية، وثورتنا المصرية أيام كان يبدو بعيدا محالا. وعزمت هذه الحركة وتلك الثورة على جعل الممكن ممكنا.

كيف يمكن، ما ترى تفسير هذا الأمر؟

من أين لأبعد القوم من مجال السياسة والثورة هذا الحميم إلى شىء لم يرد إلى بالهم، فى ظاهر الأمر؟

ماذا تعنى ظاهرة لطيفة الزيّات؟

فى ظاهر الأمر لا يمكن تفسير الظاهرة إن جاز التعبير دون التلاعب بالألفاظ

نعيش فى نعيم القرن الكوكبية والعولمة المطمئنة والخصخصة بعيدا عن السد العالى وهمومه وحتى مصدر المتعة على الساحل الشمالى وكل سواحل مصر وعلى حدودنا السلاح النووى الاستراتيجى يهدد كل خطى ويحاصر أى تحرك للدولة والشعب معا ويهز من تخاذل منصة الاستسلام.

جو رطب جو اللا معقول:

وعلى الضفة الأخرى ضفة لطيفة الزيّات وزملائها وقفت مصر وشعبها. ومنذ خمسين عاما على وجه التحديد أى فى ربيع ١٩٤٦، تنادى اللجنة الوطنية العمال والطلبة جماهير الشباب للتحرك فى مظاهرة كبرى لإعلان نهاية عهد الاحتلال. طلاب جامعة فؤاد الأول بالجيزة متجهون إلى قلب المدينة حيث بدأ مئات الآلاف من العمال يحتشدون حول أعلام مصر.

بحر من الشباب يتماوج على كوبرى عباس ١٩٤٦. والشابة التى وجدت الملاذ فى الكل قطرة من البحر، الفرح الشرس هى والقوة العارمة الفاعلة والأنا فى الأنا والمعنى لأننا نحن بحر من الشباب يتناغم على كوبرى عباس هديره يخلخل أوتاد استعمار قديم واستعمار جديد يتربص أنظمة عميلة رجال البوليس يتبعون المظاهرة بهراواتهم الثقيلة.

فجأة يتخلخل البحر ويهوى الشباب إلى النيل عشرات بعد عشرات ينجو منهم من ينجو ويموت من يموت. وفى نفس اللحظة التى ينشطر فيها كوبرى عباس إلى شطرين وينجرف شطر الكوبرى المؤدى إلى قلب المدينة تدفع الهراوات بالمؤخرة إلى الهاوية.

لا تصل مظاهرة طلاب جامعة فؤاد الأول إلى قلب المدينة وتصل إلى كل مدينة وكفرونجع فى مصر والبلاد العربية تبدأ الثورة من حيث توهموا أنها انتهت.

وعلى شط النيل تجلس الفتاة التى وجدت الملاذ فى الكل تستر العرى عريها عريهم عرينا نجلس ليلا وصبحا وضحى حتى ينتهى الغواصون من مهمة انتشال الجثث. تلف بعلم مصر الأخضر جثة بعد جثة تتسابق يداها وأيدى الآخرين الكثير من الأيدى والجثث ترتفع كالأعلام عالية على أيدى العاشقين وشجرة العشق حية لا تموت ولا النحن التى هى أنا والنحن.

هكذا وبعد خمسين عاما وعلى شط النيل تجلس الفتاة ليلا وصبحا وضحى تجلس الفتاة الشابة الكاتبة الأستاذة ترسم لوحة ملحمة مذبحة كوبرى عباس التى أطاحت بمئات الضحايا من شباب مصر ومنهم من فقدت جثثهم وظلت دون مأوى.

الخيط الرفيع الذى يربط هذا العالم إنما هو حب الوطن، الحنين إلى عزته واستقلاله. الشوق إلى أن يحتل شعب مصر مكانته المركزية فى التحرك من الثورة إلى النهضة وحب الحياة الهيام إلى حلم حمل فيه شباب مصر عبء الأحلام ومن التراث بثمن الحضارة دون تحسب للأهوال.

حب الوطن الذى وحده يصهر المواطنة على أرض مصر، وهو الذى تجلى فى ديار مصر بشكل ساطع فى عام الثورة ١٩٤٦ وأعوام التأميم والعبور ١٩٥٦، ١٩٧٣ ولعل اجتماع الكتاب على اختلاف مشاربهم وتباين توجهاتهم ومصالحهم حول علم لطيفة الزيّات هذه الأيام هو

فـى المقـام الأول احترام شـعب مصر والأمـة كلها بمقـام ومكانة عام ١٩٤٦ فى تاريخ مصر المعاصر.

تتراكم أسئلة المتسائلين من أين كان لهم هذا كله؟

الإجابـة على هذا التسـاؤل الحاد فى مكتبة الدراسـات والبحوث والمؤلفـات عـن تاريـخ الحركـة الوطنيـة والتقدميـة المصريـة بلغاتنا القوميـة وبجميـع اللغـات كان جيـل الأربعينات لا يملـك إلا الإيمان والهيـام وعزم لا ينكسـر لكسـر الانكسـار وهكذا أمر هام قسـط واسـع وعميق من الثقافة متعددة الجوانب والتعليم الجاد، والتربية فى إطار قيـم أخلاقيـة وطنية وروحيـة ثابتة وقد اسـتطاع بفضل هـذا كله أن يـدرك معنى صراع العمالقة أثناء الحـرب العالمية من ١٩٣٩ - ١٩٤٥ وعـرف كيـف يفيد مـن هـذه التناقضـات للانطلاق إلى شـعب مصر وكأن الأدوات والوسـائل والمـال والعتـاد كله فى أعماق هذا الشـعب. من هنا جاءت انتخابات اللجنة الوطنية للعمال والطلبة بعد شـهور مـن الانتخابات الفرعية مـن قواعد المدارس والمعاهد والجامعات من ناحيـة والمصانع والنقابـات والاتحادات العمالية مـن ناحية أخرى، بحيث كانت هذه اللجنة هى الوحيدة فى تاريخ مصر المعاصرة التى تم انتخابها بشكل ديمقراطى أصيل من قلب جماهير شعب مصر.

اجتمعـت اللجنـة الوطنية وانطلقت إلى العمل المتصل عدة شـهور وعلـى وجه التحديد مـن فبراير إلى ١٠ يوليـو ١٩٤٦ ورأت أن تنتخب

على رأس جهاز الأمانة العامة شابة تمتاز بالثقافة والجمال وبلاغة اللسان تكونت فى رحاب (دارة الأبحاث العلمية) احتلت مكانتها واللجنة جنبا إلى جنب مع أبرز قيادات الحركة الشعبية آنذاك برئاسة فؤاد محيى الدين وعندى أن هذه المعانى لا تقدم إجابة على التساؤل المصيرى الذى يطرحه جيل جديد وكأنه يتحدث بلسان الدكتورة الشابة منى سعفان متسائلا:

اقتربت منك يا فتاة النهر أن الآتية من زمن آخر من مدينة الأبراج الرمادية وعادم السيارات وزحام الشوارع والوجوه المكدودة المهمومة الساعية كل صباح وراء لقمة العيش وانكسار. هو روح المكان والبشر وسخرية لاذعة ونكات بذيئة تلعن الزمان والحكام على حد سواء.

جيل أدركه الشيب ولم يقل بعد كلمته وفى صمته يختزن سؤال المصير.

(الأهالى ١٨ سبتمبر ١٩٩٦)

أى وطن ذلك الذى ينبع من الأعماق، لطيفة وصحبها، تتحدث عن طفولتها عن (شجرة المشمش) التى صحبتها دوما من الطفولة إلى غروب العمر تتحدث عن تكشفها لأنوثتها، ويصعب على الإنسان تصديق التطور الذى حدث لهذه الفتاة بعد سنتين من بداية دراستها الجامعية، والحركة الوطنية تتصاعد فى مد ثورى فى الجامعة، وهى

تتقدم تلقى الخطب الرنانة على سلالم إدارة الجامعة على عتبة كلية الحقوق وعلى منبر قاعة الاحتفالات وعند نصب الشهيد عبد الحكيم الجراحى وهى تعقد الاجتماعات وتقود المظاهرات وتتصدى للرفض الذى يشكله طلبة الإخوان المسلمين لم يعد جسدها يربكها، لم تعد تشعر أن لها جسدا نسيته والناس تعيد صياغتها تمدها بقوة لم تكن لها أبدا وبثقة لا حدود لها، ترفعها على الأكف كالراية تنصبها مفكرة وزعيمة وتحيلها إلى أسطورة أنها انثى على الإطلاق.

وعندما التحقت بالجامعة أول ما التحقت جاءت ومعها كل شعور البنت بالنقص وكل هذا الإصرار على التحدى والرغبة فى إثبات مساواة المرأة بالرجل وكانت تغضب إذا ما حاول زميل لها أن يحمل عنها كتبها أو يخلى لها مكانا فى الترام وترفض فى إصرار من تستشعر النقص تجاه الجنس الآخر، من تسعى إلى إثبات شىء ما.

ولم تعد فى حاجة إلى إثبات شىء وهى تجلس على سلم المكتبة تستوعبها مناقشة فكرية مع مجموعة من الزملاء والزميلات وزميل من الطليعة الوفدية عضو فى اللجنة الوطنية للطلبة والعمال بجرانها بالقوة البدنية طالبا بعد الآخر من كلية الحقوق ويطلقه أمامها طالبا منها مناقشته وإقناعه بالانضمام إلى صفوف الحركة الوطنية ولم تعد تستشعر النقص والطلبة والطالبات يرفعونها بالانتخاب الحر

من مرحلة إلى مرحلة حتى ينصبوها هم واثنان واثنين من زملائها كممثلين للسكرتارية العامة للجنة لوطنية والعمال.

من عباءة الوصل الجماهيرى ولدت ومن الدفء والإقرار الجماهيرى تحولت من بنت تحمل جسدها الأنثوى وكأنما هو خطية إلى هذه الفتاة المنطلقة الصلبة قوية الحجة التى تعرف كيف تأنس للجماهير المقرة وكيف تتصدى لرفض الجماهير وتمسح عليه من عباءة الوصل الجماهيرى. ولدت الفتاة القادرة على الاحتضان والمنتشية إلى ما لا مدى بالاحتضان، القادرة على المواجهة، على تطويع الرفض. لن تلبث عزلتى أن تنكسر، وعلى رغم هذا التحرر والانتفاضة الثورية والإقبال على الحب والهيام وكذا تمسكها بالحداثة التى تمثلتها فى أستاذنا العميد الدكتور طه حسين. فإن لطيفة كانت أول من كافح موجات السجن المتتالية لرفع الظلم ومنع الإهانة عن زميلاتها عضوات التنظيمات الإسلامية دون كلفة ولا افتعال لما كان لديها من فهم عميق أصيل لمعانى الحدة الوطنية وحتمية احترام إنسانية الغير ما دام أن حب الوطن والوفاء للشعب وكذا قيم حضارتنا الروحية هى الإرث المشترك.

وكان هذا أيضا الذى دفع بها إلى رئاسة لجنة الدفاع عن الثقافة الوطنية ضد التطبيع على العدو الصهيونى منذ نهاية السبعينات اكتشاف هذا المعنى وهى فى مرحلة الأستاذية امتداد للأسس التى

وضعتها الحركة الشيوعية المصرية لمفهوم ومضمون وبرنامج تحقيق الثقافة الوطنية فى الأربعينات بينما اكتفت أكثر فصائل الأحزاب الوطنية المعارضة بمفهوم مجانية التعليم على أهميته.

ومعنى هذا أن التفاف الجميع حول لطيفة بعد رحيلها إنما يمثل أيضا - وهذا هو المعنى الثانى لما يحدث الآن - الحنين إلى الحياة الاجتماعية المتحضرة التى ترفض بشكل مبدئى وإصرار لا يعرف الهوان والرجعية فى السلوك والمعاملات وفوق هذا وذاك يرفض إحالة الخلافات الحتمية بين مختلف مدارس الفكر والعمل التكوينية لوطننا وأمتنا إلى حرب أهلية صدامية باسم العلمانية والتدين وكلاهما رافد من بين عدة روافد تكوينية لحضارتنا الخلاقة التى عرفت كيف تمزج بين الجمال والقيم بين صيحات الفلاح الفصيح ومركزية السلطة المجتمعية بين الجمال والكمال.

ولعل فى أوراق لطيفة غير المنشورة ما يصف ذلك الرباط العميق بين ثورة (الفلاح الفصيح) ضد ظلم الفرعون كما صورها شادى عبد السلام وبين إعلان الشعب إرادته فى التحرر وكان صلاح أبو سيف خير مرآة لذلك.

وعلى وجه التحديد أرجو أن تروى لنا أوراق لطيفة الزيّات غير المنشورة هذا اليوم الحاسم فى أكتوبر ١٩٥١ عندما احتشدت جماهير الشعب حول قيادة اللجنة الوطنية للعمال والطلبة المنحلة أمام مبنى وزارة الخارجية العتيد منذ العاشرة صباحا ترفع شعار (نريد السلاح

يـا صلاح) حتـى خرج إلى الشـرفة فى الخامسـة بعد الظهـر الدكتور محمـد صلاح الديـن وزيـر الخارجية لوطنى الشـجاع آنـذاك وتلقى شـعار الجماهـير ونقلـه فى اليـوم التـالى إلى اجتماع مجلـس الوزراء برئاسـة مصطفـى النحاس باشـا، فـكان أن ذهب رئيـس الوفد إلى البرلـمان يـوم ٨ أكتوبـر ١٩٥١ وألقـى خطبته الخالدة. مـن أجل مصر وقع على المعاهدة (أى المعاهدة الإنجليزية المصرية ١٩٣٦). ومن أجل مصـر ألغى المعاهـدة، كانت هذه فاتحـة المواجهة المباشـرة ضد قوى الاحتلال البريطانى، وقد تجلت بشكل ساطع فى نضال الفدائيين من جميـع قطاعات الجبهة الوطنية المتحدة ضـد القواعد البريطانية فى مناطق القنال حتى تفجرت الأوضاع وتم إحراق القاهرة يوم الجمعة الحزيـن يـوم ٢٦ ينايـر ١٩٥٢ ومـا تـلاه من فـرض الأحـكام العرفية ومحاولة حكم البلاد بواسـطة حكومات الأقليـة الرجعية، حتى فجر ٢٣ يوليو ١٩٥٢.

أيـن كانـت لطيفـة؟ اللهم إلا فى الصـف الأول مـن المظاهرة التى أعلنت إرادة شعب مصر أمام وزارة الخارجية مبشرة بإشراقة مرحلة جديـدة للثـورة المصرية؟ ما زلنا فى حـاجة إلى تنمية أوراق شـخصية (دار الهـلال ١٩٩٢) تحكـى لنا وقفة لطيفة الزيّـات وصحبها فى هذه الأيام الحاسمة.

إلى أن كان آخر لقاء وكأنه بداية جديدة.

فقد شاءت السيدة الكريمة النادرة « راوية كرشاه » حرم الصديق الأستاذ الكبير الدكتور حسام عيسى أن تحتفى بيوم عيد الميلاد الواحد بعد السبعين لكاتب هذا السطور، فدعته إلى اختيار عشرين من الأصدقاء للقاء وقضاء أمسية أنيسة فى دارها وبطبيعة الأمر كانت لطيفة على رأس قائمة المدعوين. ذهبت إلى منزل صديقى فى الدقى فى السابعة والنصف مساء أى قبل الموعد المحدد بنصف ساعة للشكر وتبادل الذكريات قبل حضور الأصدقاء وإذا بأصوات وضحكات بهيجة تلحق بنا تصعد من بئر السلم إلى الدور الثالث وكأنها تزغرد. أرادت لطيفة أن تكون أولى الحاضرين فاندفعت مع الصديقة الكريمة الدكتورة ووصلت بعد حضورى بدقائق تنهج.. كان لقاء وأى لقاء وعناق لا كالعناق قالت وهى تلهث وتكاد تبكى أنا كل ما أشوفك أكون سعيدة وأمسكت بيدى وكررت هذا المعنى المرة تلو المرة والساعة بعد الساعة كأنها تمسك بيدى لآخر مرة.

وفجأة وكانت هذه المفاجأة لنا أجمعين تحولت أمسية الاحتفال إلى الاحتفال بلطيفة الزيّات ومعها د. رضوى عاشور وقد أخبرنى الصديقان راوية وحسام أنها أيضا بلغت سنا مماثلا فى هذه الأيام استقطبت لطيفة وطبيعة الأمر دون أى افتعال أنظار الجميع. وقد أشرقت ابتسامتها الحزينة وانطلق رنين ضحكاتها بذكريات

والنكات تحاول أن تثير حصار العذاب القادم والسنوات الجريحة لا أظن أن أحدا من الذين سعدوا بالالتفاف والاحتفاء بها فى تلك الأمسية الحميمة مساء ٢٣ أكتوبر ١٩٩٥ فى مقدورهم أن ينسوا أو يتناسوا. أن يصدوا مسار الهيام المتجدد، أن يديروا ظهرهم لسيدة الجمال والكمال. انتهت السهرة

كانت هذه أجمل هدية عيد ميلاد عرفتها.

انتهت السهرة، انتهت الرحلة، وصعدت روحها إلى السماء.

يوم جاءنا عادل حسين من النيل...

تمر الأيام. أو لعلنا نحن الذين نمر عبر الزمان. أيام نادرة، وكذا أمسيات أو ندرة من الساعات، نسيج من النور والنار، وكأن خيطا رفيعا عميقا يجمع بين مراحل العمر ومعانى الحياة.

من منا ينسى، أو يتناسى، يوم جاءنا عادل من النيل؟ أمسية فى خريف ١٩٩٦ على ضفاف النيل على مقربة من حلوان اجتمع الأهل والصحب بدعوة من الوالدين السيدة النبيلة ناهد يوسف وزوجها عادل حسين للاحتفال برفاف نجلتهما سلمى. تساءلنا: لماذا النيل؟ ألا تكفى مصر الجديدة؟ إيه الحكاية؟..

اجتمع الأهل والصحب عند المساء أخبرتنا قرينته أن عادلاً قد أعد لنا مفاجأة. بعد نحو ساعة، أطفئت الأنوار وأعلن مذيع الحفل أن العروس قادمة من البحر مع والدها.

وسلطت الأضواء على شىء فى النهر يقترب تدريجيا من مكان الحفل. وإذ به قارب أبيض ناصع يقوده عادل حسين مجدفا ومعه العروس فى ثوب زفافها المشرق، وكأنها لؤلؤة البحر تهدى إلى عريسها. وقفنا جميعا مشدوهين بينما ارتفعت الزغاريد. وفجأة

وعند اقتراب القارب من لشاطىء انزلق عادل ربما من فرحته وكاد المركب ومن عليه أن يغرق. البقية بصبيعة الأمر كانت عكس ذلك إذ استطاع عدد من الأصدقاء إعاده الاتزان - وعم الفرح.

تساءلت، تساءلنا: ما معنى هذه الأمسية المشرقة؟

نعم: أراد عادل وناهد أن يكون الجمال، والذوق المرهف والبهجة العارمة معنا جميعا تحيط بالمستقبل، أراد الوالدان أن تتعرى المناسبة من مراسم لزفاف وأن نفتح ساحة واسعة لاجتماع الأفئدة بشكل رفيع التحضر على أرض مصر المحروسة.

تساءلت، تساءلنا لم النيل؟ لمجرد أنس الوجود؟

نظرت من حولى إلى الحضور: جمع نادر من وجوه مصر من جميع المحافظات وجميع توجهات الفكر والعمل على تنوعها واختلافها: ممثلو المهن الرئيسية والأحزاب كلها والجامعات والنقابات، وذلك على امتداد الأجيال، ساحة تجمع فى رحبها عناصر الحياة المصرية، الحياة المصرية عام ١٩٩٦ لم تكن كما كانت عليه فى الأربعينات، عندما دخل عادل حسين معارك الحركة الوطنية لتحرير مصر من الاستعمار والطغيان من السويس إلى أكتوبر. وقد بين الفقيد الكبير أسباب التغيير فى أعماق المجتمع فى دراسته الرائدة عن الاقتصاد المصرى من الاستقلال إلى لتبعية (١٩٧٤ - ١٩٧٩) الذى تم نشره فى جزأين عام ١٩٨١.

كيف يمكن إذن جمع الشمل عبر مسيرة طويلة من الإنجاز والإجهاض على أيدى قوى اجتماعية ومدارس فكرية اتفقت على الهيام والاختلاف، فتنوعت مساراتها وتباينت خططها؟ كيف يمكن جمع الشمل على أرض حاصرتها قوى العدوان والعنصرية؟ كيف يمكن ضبط مسار السفينة بين العواصف والتغييب بين التهديد والترغيب؟ - كيف يمكن ضبط عجلة القيادة لعبور ما بعد العبور.

عدنا إلى جمهور الحفل وقد انتشرت البهجة والضحك فى أرجاء الزمن الأنيس على ضفاف النيل. قطاع من الحضور من جيل الحركة الوطنية ومعارك التحرير وحروب مصر من الثلاثينات إلى السبعينات، المحاربون القدماء كما يقول الشباب باسما. وقطاع آخر من أبناء الستينات الذين تولوا الأمور منذ نهاية السبعينيات بطبيعة الأمر، فى جو تفاقمت فيه الفوارق وتعمقت الخلافات. كان عام ١٩٩٦ يحتل مكانة متقدمة فى عصر العولمة - عصر الشقاق والنفاق الذى استهدف وما زال، الأمم والدول المستقلة. أمر واقع لابد من إدراكه ومواجهته. والمواجهة إنما تنبع من معانى وأركان الحظ العام لحركتنا الوطنية المصرية منذ مطلع الأربعينات، وهى التى قدمت مفهوم الجبهة الوطنية المتحدة نمطا لضمان استمرار المسيرة الطويلة. الجبهة الوطنية المتحدة التى تجمع بين مستوى جميع القوى السياسية ومستوى جميع مدارس الفكر والعمل والوطنية - طريق

النـور والشـرف الذى فتحه المناضلين والشـهداء ومـن صفوفهم خلال الشـهور الأخيرة. محمد الشـحات، عزى زكى، عبد الله الطوخى، على الشوباشـى، شـحاتة هـارون، عادل حسـين. مـن هنـا إذن مدخل إلى الإجابة عن السـؤال - التساؤل، عن مغزى النيل فى حفل العرس، عن جمـع شمـل أحباء الوطن. من هنا كان سـعى عادل حسـين إلى جمع التيارين الرئيسيين فى معارك ما أسماه الاستقلال الوطنى والقومى، آخر بحوثه إلى ندوة نحو مشـروع حضـارى نهضوى عربى المزمع عقده بين ٢٣، ٢٦ أبريل فى مدينة فاس - وكأنها وصية له لأجيالنا الطالعة وكأنه يردد مؤكدا: هل يمكن أن نتشكك أننا على موعد مع القدر؟. إن نسينا، لن ننسى ابن مصر شـامخ القامة الذى سعى إلى وطنه وأمته وربـه، بـل نذكر الصديـق الحبيب المناضـل الوطنى رفيـع المقام حول صورة ذلك اليوم الذى جاءنا فيه عـدل من النيل.

شادى عبد السلام و «الامبراطور» كوروزاوا

كما قال أجدادنا ومازلنا نقول: من يشهد للعروسة غير أمها وخالتها وأهل حارتها؟ بدءا من هذه الحكمة التى لا ريب فيها، لعلنا نبدأ بشهادة أهل الحارة المواجهة التى دوما كانت على نزاع وصراع مع حارة العروسة. أقصد بذلك: دعنا نسأل أم وخالة وأهل الحارة الأمريكية عن رأيهم فيما يحدث فى روسيا الآن، وهم الذين عملوا دون كلل على هدم الاتحاد السوفيتى؟ منذ ١٩١٩، وخاصة ١٩٨٩؟

هذا مثلا وليم بفاف صحفى مرموق من كبار كتاب لوس أنجلوس تايم يذهب إلى موسكو بين الحين والآخر لإلقاء المحاضرات والمشاركة فى ندوات. كانت رحلته الأخيرة، هذه المرة، حيث دعى لإلقاء ثلاث محاضرات على طلاب قسم الصحافة بجامعة موسكو. يقول: أثناء زياراتى السابقة، كنت قد تركت موسكو - والحق يقال - بشعور من السعادة للخلاص من الموت المتفشى فى البلاد أما هذه المرة فلم أشعر بذلك. إن الأقلية الحاكمة قد وطدت أركانها، وحتى لو كانت هذه الأقلية الاستغلالية ذات مذاق ثقيل، فإنها قد أقامت نوعًا من الحكم نجح واستمر منذ زمن حسنا. الأمور إذن تسير فى نظام، بحيث إن

صديقنا يستطيع أن يرحل بروح هادئة، ولا أقول هانئة. وفجأة وفى نهاية تقريره يشرح لنا بشىء من طراوة الروح، ماذا يقصد بالنظام. يقول: إنه غياب نظام قانونى وقضائى لتناول الفوضى الناجمة من علاج الطوارئ الذى دفع بروسيا إلى فوضى الرأسمالية، بعد خروجها من فوضى الشيوعية، وفى الظروف الاجتماعية الناتجة من انعدام هذا النظام، فإن الروح العدمية متفشية واضحة فى موسكو، جنبا إلى جنب مع القوى الإيجابية الموجودة. وهذه الروح العدمية تدعمها وجود جالية واسعة جدا تمتاز بروح استقلالية غير عادية فى مجالى التجارة والأعمال، وكل من أعضائها لا يهدف إلى انتزاع قطعة لحم من ثراء روسيا الجديدة قبل أن يذهب مع الريح وإلى هذا الحد يشرح لنا الزائر الأمريكى الخبير المخضرم كيف يتجلى هذا النظام. يقول: هذا مثلا دليل للجاليات الأجنبية الموجودة يقدم تقييما لنوادى الليل والمطاعم يتركز حول نوعية الداعرات المعروضات للمتعة وكذا لعامل مواكب يوصف بعامل الاستمرارية ومعناه هل تخرج من هذا المكان حيا؟ وهذا العامل الثانى يصف أثر جماعات العنف وكلها مسلحة، ومعدة للعمل تتكون من مجرمين شبان وحراس خصوصيين ومسلحين فى هذه الأمكنة.

وفى هذا الدليل فإن النجمة الواحدة أمام اسم النادى الليلى معناها أنه من الممكن أن تخرج حيا. أما وجود ثلاث نجوم فمعنى ذلك أنه

يجب عليك أن تحذر. ولو سألتنى عن تقييمى للجو العام فى الأمة فإننى أقول: إنه ربما بين نجمة ونجمتين، أى إنه من الممكن أن تخرج حيا، ولكن ليس بالضرورة (انترناشيونال هيرالد تريبيون ٣٠ مارس).

يتساءل، القارئ: كيف يمكن أن يكون هذا نتاج تجربة هائلة دامت ٧٠ عاما؟ وكيف يمكن أن يكون أسلاف أبطال معارك ستالينجراد كبرى معارك الحرب العالمية الأخيرة، على هذا النحو. وهنا أيضا الإجابة من عند أهل الحارة الأخرى، يقدمها لنا، هذه المرة، أنتونى بيفور فى كتابه عن ستالينجراد. وبهذه المناسبة يقول الناقد ريتشارد برنشتاين: إنه بينما العالم يتحدث عن فيلم إنقاذ الجندى ريان للمخرج ستيفن شبيلبيرج وما فيه من مآسى الحرب، فإنه من الواجب أن نتذكر أن أشد معارك الحرب العالمية الثانية وطأة لم تكن أثناء فتح الجبهة الثانية على شواطئ نورماندى، وإنما فى المعركة الشرسة بين القوى الألمانية والسوفيتية فى ستالينجراد لمدة أربعة شهور. إن إنزال القوات الحليفة فى سواحل نورماندى فى شمال فرنسا ترتب عليه عشرة آلاف قتيل فى المعارك من ناحية الحلفاء الغربيين.

أما أثناء كابوس الشهور الأربعة للحرب الشاملة فى ستالينجراد فإن الخسائر من الناحيتين فاقت المليون ويمضى السيد ريتشارد بيرنشتاين فى رصده للكتاب المتازيقارن بين القائدين هتلر

وستالين، فيقيم المارشال ستالين بأنه على رغم جموده وشراسته الإجرامية فإنه كان يستمع فى نهاية الأمر إلى القادة الميدانيين ويوافق على ما يعرضونه من استراتيجية عامة للقضاء على هتلر فى ستالينجراد وهكذا فإن مؤلف الكتاب يؤكد أن استبسال الجنود الروس البطولى يعود لنظام كان إلى حد بعيد نتاجا للنظام السوفيتى. وهو الاستبسال الذى ترتب عليه أن الشعب السوفيتى استطاع أن يواجه النزيف الناتج من نقل ٦٠ ألف مدنى من ستالينجراد إلى ألمانيا للعمل فى المعتقلات الخاصة ،أنه مثلا لم يبق من عشرة الآلاف رجل فى الفرقة ١٣ لمشاة الحرس على قيد الحياة إلا ٣٢٠ فى نهاية معركة الشهور الأربعة.

ماذا يقول مسو لجينيتسين ؟

نعود نتساءل تساؤل العالم بعد غسل الدماغ لماذا ارتفع عدد ضحايا جرائم القتل فى موسكو إلى أكثر من ألف من يناير إلى مايو ١٩٩٨ م. كيف حدث ذلك. كيف هذا الهوان؟ كيف مثلا انخفض العمر المتوسط للمواطن السوفيتى الروسى من ٧١ عاما سنة ١٩٨٩ إلى ٥٧ عاما ١٩٩٨ هذه السنة بفضل انتشار سوء الغذاء وانعدام العلاج وعدم تلقى المرتبات والحياة الحيوانية التى فرضتها قيم السوق والعصابة الصهيونية المتحكمة على عمال المناجم والمصانع والفلاحين المعدمين فى القرى وأعضاء القوات المسلحة وعلاقة تخصيص هيئة الضباط

فى الفرق النظامية دون رحمة باسم الإصلاح الاقتصادى؟ ثم لعل الكثيرين منا يتجهون شيئا فشيئا إلى إدراك معانى الحدث الجلل الذى تم أخيرا واتخذ شكل الفتك بسلطان القيصر يلتسين الذى فرضته قوى الأمبرالية الصهيونية فرضا بعد التردى والخيانة لتصفية المجتمع والإنسان الروسى، وذلك بفضل انطلاق القيادة الوطنية التقدمية المتحدة فى روسيا حول رئيس الوزراء الجديد الدكتور يفجينى بريماكوف مدعوما أساسا من الدوما (أى مجلس النواب) بزعامة رئيسه الشيوعى الدكتور جينادى زيوخانوف وهيئة كبار قادة القوات المسلحة الروسية، وخاصة الفرق المتقدمة تكنولوجيا وفى قلبها فرق المظليين والصناعات الحربية حول الجنرال الكسندر ليبيد رائد السلام مع شيشنيا وحاكم ولاية كراسنويارسك العدو اللدود لمجرم الحرب وزير الداخلية السابق الجنرال كوليكوف بفضل الدعم المعنوى للكنيسة المسيحية الأرثوذكسية العريقة.

ولو عدنا إلى الوراء بضع سنوات واصطدمنا بقصة الكسندر مسو ليجنيتسين أكبر كتاب روسيا منذ نصف قرن عند عودته إلى بلاده عام ١٩٩٤ عشرون سنة بعد المنفى وهو فى التاسعة والسبعين من عمره. إنه يستطيع أن يتحدث فى الجو الديمقراطى الجديد فنشر كتابا بعنوان المسألة الروسية فى نهاية القرن العشرين واستقبله مجلس النواب وكان ذلك عهد رئيس الوزراء يوجور جايدار صاحب برنامج العلاج

بالهزات الكهربائية الذى دمر روسيا. وقد استغرب مسولجينيتسين لانصراف الناس واستهزاء النواب خاصة بما كتب. مرت السنون ثم جاء كتابه الجديد (عنوانه روسيا فى الجحيم..) فى مائتين وأربع صفحات لم يطبع منه إلا خمسة آلاف نسخة بالقطع الصغير وهو يندد فيه بمجتمع الجنون بالمجرمين والإصلاحيين المزعومين الذى ساد روسيا منذ ١٩٩٢. يكتب مثلا عن رئيس الوزراء السابق جايدار بالحرف الواحد حتى بعد مرور ست سنوات لا يلاحظ الإنسان أدنى تردد عن هذا السياسى، وكيف أنه دفع بعشرات الملايين من مواطنيه إلى الفقر بعد أن نهب مدخراتهم، مدمرا بذلك أركان الطبقة الوسطى التى أقسم على إنشائها إن الحكومة التى تلقى بالملكية الوطنية هكذا للنهب والسلب حكومة إجرامية، تدفع بالمواطنين بين أنياب الحيوانات الضارية فى غيبة القانون، وهذا هو شعبنا الذى لايزال تحت وطأة العلاج بالهزات الكهربائية مذهولا، لا يملك الحول ولا القوة يركع وقد دمرته عملية السرقة هذه التى لا مثيل لها. وبهذه المناسبة يرجع الكاتب الكبير إلى لقائه الأول لعرض كتابه المسألة الروسية فى نهاية القرن العشرين على أعضاء الدوما أى مجلس النواب عام ١٩٩٤: تحدثت لمدة ٤٥ دقيقة عن موت أمتنا وكأنهم لا يسمعون، وقد أوضحت كاميرات التلفزة أن النواب كانوا يتحدثون إلى بعضهم، يستعمل أدوات الكمبيوتر والبعض

الآخر يتثاءب، وقطاع آخر ينام ومن هنا فلم يكن من المستغرب أن يتركز النقاش فى المؤتمرات والمنتديات وفى الصحافة والجامعة ومراكز البحوث والدوائر الأدبية حول العلاقة بين الثقافة الروسية والغربية، وطبيعة الاستبداد الروسى، والعقلية الروسية حول موضوع الفكرة الروسية، أى تفوق روسيا على الغرب المادى بفضل البعد الروحى فى روسيا، وهو الذى تحول إلى أيديولوجية اشتراكية وقاد إلى انتصار ستالينجراد وقد رأت غالبية المشاركين فى هذه الندوات أن السبب فى تدمير روسيا إنما هو الانفتاح على القوى الأجنبية واليهودية التفكيكية بما تشمل خاصة الفلسفة الليبرالية التى تدعو إلى أولوية الحرية الفردية أى الأنانية وتفتيت الجماعة بينما الروح الروسية تدعو إلى تحقيق الذات من خلال السعى الجماعى إلى المثل العليا الاجتماعية والروحية وقد اندهش بعض المتخصصين من أن أهم المجلات النظرية مثلا مسائل الفلسفة التى كانت لسان حال الحزب الشيوعى الأيديولوجى تولت الآن نشر هذه المعانى إلى حد أن أحد كتابها ج. ل. كولشيفسكى أستاذ الفلسفة فى جامعة سانت بيترسبورج (أى لينين جراد سابقا) يلاحظ أن رسائل الدكتوراه فى الفلسفة والعلوم الإنسانية تذكر الفلاسفة الدينيين الروسيين تماما كما كانوا يذكرون ماركس ولينين..

لماذا حدث ما حدث؟ وما دلالة ما يحدث؟

لا تنزلوا من الجبل!..

هنا تبدأ رسالة الإمبراطور الرحل الذى أطلقت عليه اليابان ثم كل عالم السينما بعد بل وقبل اليابان لقب إمبراطور السينما والذى رحل يوم ٦ سبتمبر المخرج العظيم خالد الذكر رائد الغد أكيرو كوروزاوا.

اترك شأن التاريخ التفصيلى للرجل العلم الذى قدم لنا أكبر لوحة تجمع بين الرومانسية والواقعية بين الخصوصية القومية والهيام، بين التراث والأصالة من ناحية والمعاصرة والمستقبلية من ناحية أخرى فى مجموعة امتدت عبر نصف قرن بدأها مع راشومون (١٩٥١) ثم كانت الأفلام العظيمة المعروفة بعضها لها جمهور واسع فى مصر والبلاد العربية: المحاربون السبعة وفيه يصور صحوة عصابة لا وجهة لها فى الدنيا إلا إذلال الفلاحين. فهبت لنصرتهم فكانت صحوة الريف على رغم تضحية المحاربين السبعة ثم جاء دور الأفلام التأملية مثل درسو أوزالا عن نهاية العمر فى ثلوج سيبيريا، وايكيرو وأحلام إلى أن كانت المجموعة الملحمية الأخيرة خاصة كاجيموشا (خيال الظل) وران (الملك لير لشكسبير).

وفى هذه المجموعة جاءت رسالة كوروزاوا على وجه التحديد فى الفيلم - المفتاح لحضارة اليابان وأصالته وانطلاقه الخارق للعصرية ألا وهو كاجيموشا.

ماذا يقول كوروزاوا على وجه التحديد؟ وما علاقة رسالته بما يشغلنا اليوم؟

الفيلم يصور حدثا من صلب تاريخ الأمة اليابانية فى القرن السادس عشر تجمع صفوة قادة الحرب والولايات حول كبيرهم تاكيدا مشينجين فوق جبال جزيرة هونشو كبرى جزر اليابان (حيث طوكيو وناجاويا الآن). كانت البرتغال آنذاك أول من طرق باب اليابان بالأساطيل وأنزل على أرضها رجاله المسلحين ومعهم إرساليات الكاثوليك لتحويل اليابان إلى الديانة الجديدة جمع تاكيدا مشينجين رجاله فوق قمة الجبل وقد أحاطت المخاطر باليابان فى ليلة أصابته بجروح بالغة الخطورة أثناء طلعة استكشاف فى الدائرة المحيطة للجبل القريبة من البحر. كان الرجل فى نهاية المطاف العدو فى كل مكان. الثغرات والانفتاح على العالم المعادى يهدد وجود اليابان. جمع كبار القادة الاثنى عشر رافعى الأعلام فوق قمة الجبل وأمرهم باتباع وصيته الأخيرة: لا تنزلوا عن الجبل! أى لا تفقدوا العروة الوثقى التى تربط بينكم فى قلب الأمة والسلطة بحجة الانفتاح على القادمين من وراء البحار بأسلحتهم وأفكارهم وإيمانهم وتجارتهم وملذاتهم أى لا تخرجوا عن دائرة الأمة التى فيها تتمثل الوحدة الوطنية والسلطة القومية ومعانى الاستقلال والاستمرارية. عند هذا الحد أقسم القادة الاثنا عشر بالولاء وأنهم سيظلون أوفياء.

ثم جاء التساؤل: من يا ترى يمثل الزعيم المقتول أمام الشعب وقد رأى القادة الاثنا عشر أنه لابد من حجب نبأ وفاته عن الناس

باختصار شديد: اختاروا بين مجموعة اللصوص المعتقلين رجلا يشبه القائد العظيم الراحل وقد ارتكب من الجرائم ما يقود إلى المشنقة. استدعوه خيروه بين أن يلعب دور القائد الراحل مادام شكله وهندامه يطابقان تماما شكل وهندام تأكيدا مشينجين بشرط أن ينصاع إلى أوامرهم. وافق الرجل إفلاتا من المشنقة. ثم بدأ التدريب تدريب المجرم السابق دورا الملك الشبح أى على دور كبير القوم فى المجالات كافة من حيث المراسم والتعامل الاجتماعى وكذا فنون الحرب والقيادة إلى أن جاء اليوم الفاصل بين الحق والباطل بين الحياة والموت.

شعر القادة الاثنا عشر أو على الأقل جزء منهم أن حصار العدو وتهديده لكيان اليابان انخفض إلى حد ما وأنه لا مانع من النزول ولو مرحليا أو جزئيا إلى سفح الجبل. إلى حد أن بعضهم رأى أنه من الممكن محاصرة العدو فى الساحة المطلة على موانئ الغزو بفضل القوة الجديدة التى تجمعت بين يديهم خاصة وقد وجدوا رمزا للزعيم الأوحد الراحل. وفى لحظة من الغرور نسوا الأوامر والوصية. ونزل الجيش بفرقه الثلاث إلى الساحة حيث كانت قوات العدو فى انتظارهم مزودة بالأسلحة النارية والمدفعية بينما الفرق اليابانية الثلاث لم تملك إلا السيوف والمطاوى والخناجر والسهام. لم تدرك القيادة اليابانية بادئ الأمر حقيقة الصراع. ومما زاد الفجيعة أن الملك الشبح انطلق لقيادة جيشه والتغلب على الرأى القائل بأن

الحرص لابد منه. الغرور والاطمئنان إلى العدو وباسم الانفتاح على العالم إهمال الحرص الوطنى، والوحدة الوطنية الدولة والإرادة القومية والتربص لما هو قادم من بعيد للغزو والسيطرة والهيمنة. فى ساعات قلائل ثم تدمير الفرق الثلاث اليابانية ولم يبق منها إلا بعض الأحياء الجرحى فى نهاية لحظات حياتهم، ومعهم فرس الزعيم المصطنع المجرم السابق ينشر دماءه على رمال ساحل البحر. المنظر الرهيب الذى أراد به كوروزاوا أن يختتم ملحمة الوجود والفناء، ويلقن اليابانيين درسا من صلب تاريخهم ألا وهو: أن الانفتاح على العدو الخارجى والسماح بثغرات باسم التعامل معه للامتثال بما هو عليه (أى ما نسميه عملية التحديث اليوم) هى طريق الهلاك.

كان لكوروزاوا رواد عديدون درسوا على يديه وأفادوا منه وخاصة فى مصرنا العزيزة صلاح أبو سيف وشادى عبد السلام، وكان كوروزاوا يعتبر أن فيلم المومياء لشادى عبد السلام يمثل الفيلم - المفتاح - للشخصية المصرية إلى حد أنه أمر بعرضه السنة تلو السنة خلال السنوات العشر الأخيرة من عمره فى نادى السينما المرموق المركزى فى طوكيو (ايدانامى هول).

كوروزاوا:شادى عبد السلام: رسالة واحدة

وهنا لمسة من الذكريات سريعا سريعا كان شادى يتساءل كثيرا عن خصوصية اليابان البعيد الغريب، وكيف أمكن لمخرج عصرى مثل

كوروزاوا أن ينتج هذه الموسوعة من الأفلام الفريدة فى هذا القرن وقد استطعت آنذاك أن أحقق دعوة له حضور ندوة الخصوصية والعالمية فى مشروعنا بجامعة الأمم المتحدة. كان ذلك فى نوفمبر عام ١٩٨١ مازلت أذكر كيف أن شادى عبد السلام ظل صامتا خلال الأيام الثلاثة للندوة لا يقدم فكرة دعنا عن الورقة بل ولا يعلق على أى من الأوراق أو الأفكار المعروضة. سألته مرارا: لمادا لا يتكلم؟ كان شادى فى تأمل صوفى لم أفهمه وأن كنت قلقا: هل ترى أن اليابان صدمة..؟ هل الندوة لا تتفق مع آرائه. هل هناك بعد غالب؟.. نعم: كان هناك بعد غائب. قال: إنه يريد أن يفهم أن يذهب إلى أعماق اليابان. عند هذا الحد انطلقنا معا إلى مدينة كيوتو العاصمة التاريخية لليابان التى انتهى دورها بعد بدء ثورة ميج للتحديث عام ١٨٦٨. وهناك دعوته إلى مشاهدة مسرحية نو فى مسرح أسرة كانزى العريقة فى حى جبون، وهو حى الجيش المعروف، ذهبنا معا نقضى يومًا واحدًا من العاشرة صباحًا حتى الخامسة والنصف مساء يوم الصفوة اليابانية بعيدا عن أفواج السياح وهنا بدأ التحاور. شاهد مخرجنا العظيم المسرحية التى تعبر عن المرور عبر الزمان دونما جواب، وكأنما يشاهد مسرحية جاءت من صفحات كتاب الموتى لمصر الفرعونية فجأة بدأ شادى عبد السلام يصحو وينطلق ويسأل ويقول ويعارض ويتساءل. عاد إلى ما كان عليه: إشراق وفكر طليعى وريادة هيامية

لا حدود لها. وفجأة قال: إننى الآن فهمت الأمر. هذا إذن منبع أفلام كوروزاوا.. ثم كانت بقية الرحلة وهى تمت إلى الذكريات نتركها لوقت مناسب.

المهم أن شادى عبد السلام أدرك أصولية الأمة كل أمة فى عمق العاصمة الإمبراطورية التاريخية الحضارية العظيمة كيوتو هناك أدرك لماذا لابد أن تنزل أمة عن الجبل.

مؤلفات الأستاذ الدكتور أنور عبد الملك باللغة العربية:

- دراسات فى الثقافة الوطنية - دار الطليعة، بيروت ١٩٦٧.
- الجيش والحركة الوطنية - دار ابن خلدون، بيروت ١٩٧٤.
- المجتمع المصرى والجيش (١٩٥٢ - ١٩٧٠) - الطبعة الثانية (المعتمدة من المؤلف) دار الطليعة بيروت ١٩٧٤.
- الفكر العربى فى معركة النهضة - دار الآداب - بيروت ١٩٧٤، الطبعة الثانية ١٩٧٨.
- مدخل إلى الفلسفة، ترجمة وتقديم مؤلف د. جون لويس، الدار المصرية للكتب - القاهرة ١٩٥٧، الطبعة الثانية - دار الحقيقة - بيروت ١٩٧٣.
- نهضة مصر - الهيئة المصرية العامة للكتاب - القاهرة ١٩٧٣.
- ريح الشرق - دار المستقبل العربى - القاهرة ١٩٨٣.
- تغيير العالم - عالم المعرفة - الكويت ١٩٨٥.

- الشارع المصرى والفكر - الهيئة المصرية العامة للكتاب - القاهرة ١٩٨٩.
- القومية والاشتراكية (الكتاب الثانى من الجدلية الاجتماعية) - دار المستقبل العربى - القاهرة ١٩٩١.
- الإبداع والمشروع الحضارى - كتاب الهلال - القاهرة ١٩٩١.

المراجع الأجنبية:

Editions du Cap. Monte Carlo 1971.

Egypte, Société militaire Le Seuil,. Paris, 1962.

Ed, Italy (Einaudi, Turin, 1967): Spain (Editorial Lecons, Madrid, 1967): USA (Randon House- Vintage Books, 1971)

Anthologie de la litlérature arabe cntemporaine:

II. Les essais Le Seuil, Paris 1965.

Oeuxiéme édition revue et augmentéc, 1970.

Kûltur Emperyalizmi Atac Kitabevi, Istanbul, 1967.

Idéologie et renaissance nationale: L'Egypt moderne Anthropos, Paris, 1969; 2éme 1975.

I,a pensée politique arabe contemporaine Le Seuil, Paris, 1970: 2éme éd. 1975: 3EME Ed 1980) Ed turkay (ALTAN Kiaplar. Ankara 1971) Italy (Editori Riuniti, Roma, 1973).

Sociologie de L'impérialisme Anthropos Paris, 1971.

L,a Diâleclique Sociate Le Scuil, Paris, 1972.

Ed. Japan (Iwanami Shoten, Tokyo); spain (Siglo xxi, Mcxico); Italy (Dedalo, Bari); Porluguese (Paze Terra, Rio-de-Janeiro);

L'armée dans la nation (Asie, Afrique, Amérique latine) SNED, Alger 1975.

La Renaissance du monde arabe Ed. with Abdel- Aziz Beiat el Hassan Hanafi Dueulot, Bruxelles, 1982.

Spéifidité et Théorie Sociale Authropos, Paris, 1977.

The Project on "Socio-cultural Development Alternatives in a changing World (SCA): Report on the Formative Stage, UNU Press, Tokyo 1980.

Social Dialeeties (1): Civilisations and Social theory, the <acmillan Press landon and S.U.N.Y. Press, Albany, N.Y 1981.

Social Diqleeties (2): Nqt:on and Revolution, The Macmillan Press, London, and S.U.N.Y. Press, Albany, NY 1981.

Intellectual Créativety in Endogenous Culture, (ed. With A.N. Pandeya), UNU Press Tokyo, 1982.

The Transformqtion of the World: "Science and technolagy (ed, wigh m. pecujlic and G.Blue) the nocmilon Press, Lonon, 1982.

The Transformation of the World: 2) Eeonmy & Society (with M. Gonzaler), ibid; 1984.

The Transaformation of the world: 3) Culture and Thought (with Anisuzzenol), ibid; 1984.

Contemporary Arab Folitical Thought, Zed Press, London, 1983.

المصادر

التراكم الوطنى

سلامة موسى: المساء ١٤/٨/١٩٥٨

عبد العظيم أنيس: بحث بمناسبة تحية عبد العظيم أنيس فى عيد ميلاده الثمانين - جامعة عين شمس ٢٠٠٤.

فتحى رضوان: الأهرام ١/١٢/١٩٩٨.

صبحى وحيده: المساء ٢٣/١٠/١٩٥٨ - الأهرام ١١، ٢٥/٧/٢٠٠٠.

إبراهيم عامر: المساء ٢٨/٨/١٩٥٨ - الأهرام.

شهدى عطية: بحث تحية بمناسبة الذكرى الثلاثين لاستشهاد شهدى عطية الشافعى.

يوسف إدريس: الأهرام ١١/٩/٢٠٠١.

محمود أمين العالم: بحث مقدم بمناسبة العيد الماسى لمحمود أمين العالم - المجلس الأعلى للثقافة سنة ٢٠٠٤.

جمال حمدان: الأهرام ٢٢/٨/٢٠٠٠.

لطيفة الزيات: الأهرام ٢٤/٩/١٩٩٦.

عادل حسين: الأهرام ١١/٤/٢٠٠١.

شادى عبد السلام:

المحتويات

مقدمة ٧

التراكم الوطنى ٩

سلامة موسى: رائد التفكير العلمى فى مصر ٢١

عبد العظيم أنيس: العلم والثورة فى سبيل النهضة ٣٥

رسالة فتحى رضوان: مصر الشرق ٤٣

عبد الفتاح صبحى: وحيدة فى أصول المسألة المصرية ٤٩

إبراهيم عامر: الأرض والفلاح فى تاريخ مصر ٦٣

شهدى عطية الشافعى: فى أصول المسيرة الطويلة ٧٧

يوسف إدريس: الكاتب الفاتح ٩١

محمود أمين العالم: فى أصول الثقافة الوطنية ٩٧

جمال حمدان: فى أصول الشخصية المصرية ١٠٥

لطيفة الزيّات: فى سماء مصر! ١٢١

يوم جاءنا عادل حسين من النيل ١٣٣

شادى عبد السلام و« الأمبراطور» كوروزاوا ١٣٧

المؤلفات..... ..... ١٥٠
المراجع الأجنبية..... ..... ١٥١
المصادر..... ..... ١٥٣
المحتويات..... ..... ١٥٤